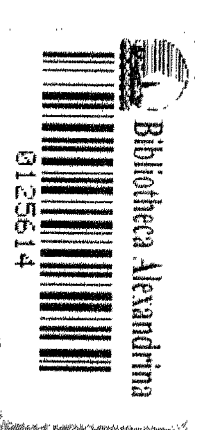
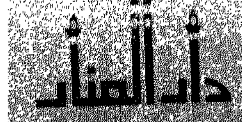
دكتور محمود حمدي زقزوق

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام








بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى

١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م

دار المنـــار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع الباب الاخضر ـ ميدان الحسين
القـــاهرة

قضايا
فكرية واجتماعية
في ضوء الإسلام

دكتور محمود حمدي زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

دار المنار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله ..

وبعــــد ..

تتضمن الصفحات التالية عددا من البحوث والدراسات الاسـلامية التى تم اعدادها فى مناسبات مختلفة . وقد قدم معظمها الى عدد من المؤتمرات والندوات الدولية فى مصر والعالم العربى وأوروبا .

وعلى الرغم من أنهـا قد كتبت فى فترات زمنيـة متباعدة وفى مناسـبات مختلفة فانه يجمع بينها جميعـا هدف واحـد وترتبط برباط واحـد . فهدفها جميعـا هو ابراز بعض القيم الاسـلامية ، وتوضيح دور الاسـلام فى التوجيه السليم للتيارات الفلسفية والصوفية والأخلاقية ، والتأكيد على تصحيح بعض التصورات المغلوطة التى تذيعها بعض تيارات الفكر الغربى عن الاسـلام .

وقد سـبق نشر بعض هـذه البحوث فى بعض المجلات العلميـة أو فى صورة كتيبات . وقد رأينا أن نجمعها فى كتاب يضمها جميعـا ـ كما هى دون تعديل أو اضافة ـ حتى لا تظل محصورة فى اطار النطاق الضيق للمؤتمرات والندوات التى ألقيت فيها ، أو النشر المحدود لبعضها . وقد صنفناها فى ثلاث مجموعات ضمت كل مجموعة منها البحوث التى تتشـابه فى موضوعاتها . ومن هنا جـاء الكتاب فى ثلاثة ابواب على النحـو التالى :

يضم الباب الأول ـ فى ثلاثة فصول ـ دراسات فى ضوء القرآن والسنة حول مفاهيم وحـدة الأمة الاسلامية وخصائص المجتمع الاسلامى والمسئولية العـالمية ٠

اما الباب الثانى فانه يشتمل ـ فى ثلاثة فصول ايضا ـ على دراسات فى الفكر الاسلامى الفلسفى حول دور الاسـلام فى تطـور الفكر الفلسـفى ، وحـول مفهوم التصوف الاسـلامى ، ومفهـوم القيم ٠ وقد تناولت مباحث الباب الثالث ـ فى ثلاثة فصول ـ دراسات حـول الاسـلام وتيارات الفكر الغربى ٠

وركزت هذه الدراسات على التصورات الغربية عن الاسلام فى مجال الفكر الاستشراقى ، وأبرزت دور مؤسسات الدعوة فى مواجهـة الغزو الفكرى ٠ وقد ختمنا الكتاب بملحق حول اهداف ووسائل الدعوة الاسلامية فى العالم المعاصر ٠

ونأمل أن يكون فى نشر هذه البحوث فائدة لقارىء أو نفع لباحث ٠

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠٠٠

دكتور : محمود حمدى زقزوق

مدينة نصر فى : صـفر ١٤٠٩ هـ ـ أكتوبر ١٩٨٨ م

الباب الأول

دراسات فى

ضوء القرآن والسنة

١ ـ مفهوم وحدة الأمة الاسلامية .

٢ ـ القرآن الكريم وخصائص المجتمع الاسلامى .

٣ ـ رؤية اسلامية للمسئولية العالمية المعاصرة .



الفصل الأول

مفهوم وحدة الأمة الاسلامية

القسم الأول : مقدمات عامة :

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن الكريم •

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة •

٣ ـ الوحدة والخصائص المميزة •

٤ ـ الوحدة الكمية والوحدة النوعية •

القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الاسلامية :

١ ـ البعد الدينى •

٢ ـ البعد الانسانى •

٣ ـ البعد الاجتماعى •

٤ ـ البعد الجغرافى •

٥ ـ البعد الحضارى •

٦ ـ البعد المصيرى •

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الاسلامية :

١ ـ الفرقة والتنازع •

٢ ـ موالاة الأعداء •

خاتمة : واقع الأمة الاسلامية وآفاق المستقبل •



بسم الله الرحمن الرحيم

ينقسم بحثنا[1] حول «مفهوم وحدة الأمة الاسلامية من خلال القرآن والسنة» الى قسمين نتحدث فى القسم الأول منهما عن بعض النقاط التمهيدية والمقدمات العامة التى نمهد بها للقسم الثانى الذى نتناول فيه الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الاسلامية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية ثم نختم حديثنا بالاشارة الى بعض المخاطر التى تهدد وحدة الأمـــة الاسلامية ونتناول فى هذا الصدد أيضا واقع الأمة الاسلامية وآفاق المستقبل ٠

* * *

القسم الأول : مقدمــات عامــــة

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن :

اذا بحثنا عن كلمة وحدة فى المعاجم فسنجد أن الوحدة (بفتــح الواو) تعنى الانفراد ، تقول رأيته وحده أى منفردا ، ووحده توحيدا جعله واحدا ، ورجل متوحد أى منفرد ، ولابن باجة الفيلسوف كتــاب بعنوان تدبير المتوحد ٠ والتوحيد الايمان بالله وحده ، والمسلمون موحدون لأنهم افردوا الله بالعبادة دون غيره ، وتوحد الله انسانا بعصمته أى عصمه ولم يكله الى غيره[2] ٠

والملاحظ أن كلمة الوحدة مضافة الى الأمة اى وحدة الأمة لم ترد فى القرآن الكريم ولكن ورد وصف الأمة بانها واحدة ٠ فالتركيز فى القرآن قد جاء اذن على مفهوم الأمة التى توصف بأنها أمة واحدة وليس على مفهوم الوحدة التى تضاف الى الأمة ٠ وهذا يعنى أن الأمة الواحدة هى الأصل ،

---

(١) قدم هذا البحث الى ملتقى الفكر الاسلامى الثانى والعشرين الذى عقد بالجزائر فى الفترة من ٨/٣٠ ـ ١٩٨٨/٩/٥

(٢) راجع القاموس المحيط ومختار الصحاح ٠

أما مسألة توحيد الأمة ووحدتها فقد كانت متأخرة فى الزمان بعد أن طرأ الاختلاف على الأمة مما استدعى القيام بجهود كبيرة لاعادتها الى أصل نشأتها عن طريق الرسالات السماوية المتعاقبة ٠

فنحن نقرأ فى القرآن الكريم وصف الأمة بأنها واحدة فى موضعين :

فى سورة الأنبياء (آية ٩٢) يقول الله تعالى : « **ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » وفى سورة المؤمنون (آية ٥٢) : « **وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون** » ٠

وباستعراض كتب التفسير نجد أن السياق الذى وردت فيه هاتان الآيتان يدل على أن المراد بالأمة الواحدة امة الأنبياء ٠ فهى « أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجا واحدا هو الاتجاه الى الله دون سواه ، أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء لا اله غيره ولا معبود الا اياه ، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالارادة الواحدة فى الأرض والسماء »[٣] ٠

ويرى بعض المفسرين أن الاشارة بالأمة الواحدة فى سورة الأنبياء تنصرف الى الأمة المحمدية ،فهى ملتكم التى يجب أن تتمسكوابهاولا تنحرفوا عنها ٠٠ هى ملة واحدة كما عرفتم من الأمم مع أنبيائهم ، اى ملة واحدة غير مختلفة فىالأصول والعقائد[٤] ٠

ويقول الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » : ان الأمة بمعنى الملة والاشارة هنا بالأمة الواحدة فى هاتين الآيتين الى ملة الاسلام ٠ والمعنى :

---

(٣) فى ظلال القرآن لسيد قطب طبعة دار الشروق مجلد ٤ ص ٢٣٩٥ وما بعدها ، وكذلك ص ٢٤٦٩

(٤) راجع : التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى جـ ١٧ ص ٣٤

« ان ملة الاسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار اليها بأنها ملة واحدة غير مختلفة »[٥] .

ولعل هذا التفسير يلتقى أيضا مع تلك الدعوة التى دعا بها ابراهيم واسماعيل ربهما وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »[٦] .

وفى تفسير الفخر الرازى لآية سورة (المؤمنون) : « **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** » ، يرد على اعتراض قد يرد على الأذهان يقول : كيف يكون دين الأنبياء واحدا (المعبر عنه هنا بالأمة الواحدة) مع ان شرائعهم مختلفة ؟

ويقول الفخر الرازى فى رده على هذا الاعتراض : « ان المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته . وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين ، فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذا هنا . ويدل على ذلك قوله « **وأنا ربكم فاتقون** » فكانه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه ، فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك »[٧] .

ومن ذلك يتضح أن الوحدة هنا تعنى وحدة المقاصد والغايات ولا يلزم بالضرورة ان تكون وحدة فى الشرائع أو الوسائل . ومما يدل أيضا على التاكيد على وحدة الدين بصرف النظر عن اختلاف الشرائع قوله تعالى فى سورة الشورى (آية ١٣ :) « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا**

---

(٥) راجع : تفسير الكشاف للزمخشرى ص ١٠٥ ج ٣

(٦) سورة البقرة آية ١٢٨

(٧) التفسير الكبير للفخر الرازى ـ مجلد ١٢ ج ٢٣ ص ١٠٥ ـ دار الفكر .

والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وذلك بجانب قوله تعالى فى آية أخرى : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** »[8] .

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة :

واذا كانت هذه الآيات التى تتحدث عن وحدة الأمة فى الدين الذى جاءت به الرسل جميعا فان هناك أسبابا ذكرها القرآن الكريم للاختلاف فى داخل هذه الأمة الواحدة يتجاوز الاختلاف فى الشرائع ، وهناك مفاهيم اخرى للأمة تتسع أو تضيق على حسب الأحوال . فالراغب الأصفهانى مثلا يقول فى تعريفه للأمة : « الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما : اما دين واحد أو زمان واحد او مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أم اختيارا »[9] .

وقد كان الناس فى الأصل أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بسبب الحسد والبغى بدءا من قتل قابيل لأخيه هابيل ، والأمر ذاته ينطبق على من بقى فى السفينة بعد الطوفان ، اذ كانوا جميعا على الحق والدين الصحيح ثم اختلفوا بعد ذلك . ويدل على هذا قول الله تعالى : « **وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا** »[10] ، وقوله تعالى : « **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** »[11] أى بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين بعد أن حدث الاختلاف كما تنص على ذلك الآية الأولى .

ولكن هذا الاختلاف بين البشر الذى نشأ بسبب الانحراف عن الدين ليس أمرا خارجا عن المشيئة الالهية ، وانما هو أمر يتفق مع سنة الله فى

---

(٨) المائدة : ٤٨

(٩) نقلا عن أحمد محمد شاكر فى تعليقه على مادة «أمة» فى دائرة المعارف الاسلامية .

(١٠) يونس : ١٩

(١١) البقرة : ٢١٣

خلقه . فالله سبحانه كان يستطيع لو شاء ان يجعل الناس جميعا أمـــة واحدة الى قيام الساعة ، ولكنه سبحانه أراد أن يختبر خلقه ليميز الخبيث من الطيب ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات** »(١٢) ، وقوله تعالى : « **ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون** »(١٣) .

فهو سبحانه يضل من يشاء ممن رأى فى سابق علمه أنه لو ترك ونفسه لمـــا فعل الا الضلال والبهتان ، ويهدى من يشاء ممن اطلع عليه فى سابق الأزل فرآه يميل الى الخير ولو ترك وشأنه لمـــا فعل الا الخير(١٤) .

وهناك آيات أخرى فى نفس المعنى فى سورة هود (آية ١١٨) وفى سورة الشورى (آية ٨) .

٣ ـ الوحدة والخصائص المميزة :

وبعد هذا التمهيد الذى طال بعض الشىء نستطيع أن نتبين من خلاله فيما يخص الأمة الاسلامية بالمعنى التاريخى أن وحدة الأمة الاسلامية لا ينبغى أن يفهم منها نفى الخصائص المميزة لكل شعب من شعوب الأمة الاسلامية داخل هذه الوحدة . فالوحدة هى الاطار العام تنفى التناقض ولكنها لا تنفى الاختلاف فيما هو خارج نطاق الأصول العامة .

فوحدة الأسرة ليس معناها اذابة كل الفروق النفسية والعقلية بين أعضائها فكل ميسر لمـــا خلق له . ووحدة المجتمع لا تعنى القضاء على اختلاف وجهات النظر فيما هو محل اجتهاد ولا تعنى طمس معالم ذاتية

---

(١٢) المـــائدة : ٤٨

(١٣) النحل : ٩٣

(١٤) التفسير الواضح جـ ١٤ ص ٦٥ ، انظر أيضا جـ ١٢ ص ٦٠ ، جـ ٢٥ ص ١١

الأفراد واعتبارهم أدوات صماء أو نسخا مكررة ، فتلك وحدة لا يمكن أن نبنى مجتمعا متماسكا ٠

والشيء نفسه ينطبق على وحدة الأمة الاسلامية بصفة عامة ، اذ ليس معنى هذه الوحدة طمس الخصائص التى تتميز بها شعوب الأمة الاسلامية وجعلها بلا لون ٠ فقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل لتتعارف وتتآلف لا لتذوب خصائصها كلية ، والا لم يكن هناك داع فى الأساس لجعلهم شعوبا وقبائل ٠

وكمثال بسيط يعبر عن احترام الاسلام لما تتميز به كل طائفة أو قوم من خصائص ما دامت لا تتناقض مع مقررات الدين ما رواه الامام البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار ٠ فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء ٠ فقال يا عائشة ألا بعثت معها من يغنى فان الأنصار قوم يحبون الغناء أو يحبون الغزل ٠ فلو بعثتم معها من يقول : اتيناكم اتيناكم فحيانا وحياكم »[١٥] ٠

فوحدة الأمة الاسلامية لا تصادم أية خصائص يتميز بها كل شعب من شعوب الأمة الاسلامية ما دامت فى الاطار المشروع ، وما دام الجميع ملتزمين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ٠ ويؤكد جمال الدين الأفغانى على هذه النقطة قائلا :

« لا التمس بقولى هذا ــ فى الدعوة الى وحدة الأمة الاسلامية ــ أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فان هذا ربما كان عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه »[١٦] ٠

---

(١٥) رواه البخارى وابن ماجه والحاكم فى المستدرك ٠

(١٦) د٠ محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٧٩ نقلا عن مجموعة العروة الوثقى ص ١٩٣

٤ ـ الوحدة الكمية والوحدة النوعية :

والاسلام عندما يتحدث عن وحدة الأمة الاسلامية ويحث عليها ويدفع المؤمنين دفعا اليها فانه لا يركز باية حال من الأحوال على مجرد الكثرة العددية . فالوحدة الكمية لا يمكن أن تكون هى الأساس المتين لبناء الأمة وقوتها . فاذا انبنت مثل هذه الوحدة على أساس من الكثرة العددية فقط فسيكون البناء بناء هشا لا قيمة له ولا قوام . وهذا ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات العصر أنه وحدة شعارات خالية من المضمون .

وينطبق على مثل هذه الوحدة الهشة التى تعد جسدا بلا روح ما عبر عنه النبى ﷺ بغثاء السيل . فقد روى أبو داود فى سننه والامام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[١٧] .

وعندما نظر المسلمون فى غزوة حنين الى كثرة عددهم وأصابهم شىء من الغرور وقالوا لن نغلب اليوم عن قلة دارت عليهم الدائرة وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »[١٨] .

---

(١٧) سنن أبى داود كتاب الملاحم ٥ / جـ ٤ ص ٤٨٣ (طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٠) .

(١٨) التوبة آية : ٢٥

ومن أجل ذلك يركز الاسلام على الوحدة النوعية . فالنوعية المؤمنة القليلة العدد تستطيع بوحدتها وتماسكها وقوة ايمانها وثقتها بنصر الله ـ تستطيع أن تتغلب على الكثرة الكاثرة الخاوية من الايمان . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله »[١٩].

فبناء وحدة الأمة لابد أن يقوم على أسس راسخة حتى يكون بناء متينا شامخا ولابد أن تكون عناصر هذا البناء قوية متينة . ومن هنا نجد النبى ﷺ يؤكد على أن المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[٢٠] .

* * *

(١٩) البقرة آية : ٢٤٩

(٢٠) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الاسلامية

١ - البعـــد الدينى :

يمثل البعد الدينى اهم عناصر وحدة الأمة الاسلامية ، فالدين هو الركيزة الأساسية التى تنبنى عليها بقية العناصر . فوحدة الأمة الاسلامية تمثل بناء متكاملا له أساس ثابت فى الأرض هو الذى يحمل البناء كله أو هى كالشجرة لها جذور ضاربة فى الأرض وبدونها لا يكون للشجرة كيان ولا حتى وجود ، ومن هذه الجذور يمتد الساق والفروع والأغصان .

ويتمثل البعد الدينى فى العقيدة الواحدة باله واحد ونبى واحـد وكتاب واحد وعبادة واحدة . فالجميع يتجهون فى صلاتهم فى مواعيد محددة الى الله نحو قبلة واحدة أيا كانوا فى أى مكان من العـالم ، ويجمع بينهم الصيام فى شهر معين ، ويجمع الحج بينهم من كل الأجناس والأقطار طائفين حول كعبة واحدة فى حرم الله الآمن تنجذب اليهـا أفئدتهم من كل فج عميق « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » [٢١] .

وهذا التجمع الكبير فى الحج يعد رمزا حيا لوحدة الأمة الاسلامية كلها ، فهؤلاء ممثلوها من كل مكان يجمعهم هدف واحد ويربط بين قلوبهم رباط واحد يجعل منهم جميعا اخوة متحابين متآلفين بأمر الله .

ويعبر القرآن الكريم عن هذا البعد الدينى بقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا » [٢٢] وهذه الوحدة الروحية من شانها أن تقضى على كل ما يعكر صفو وحدة الأمة أو يعمل على تقطيع أوصالها . فمادام الرب

---

(٢١) سورة الحج آية : ٢٨

(٢٢) سورة آل عمران آية : ١٠٣

واحدا والدين واحدا والقرآن واحدا فلا مجال للتناقض فى أمور الدين ·
والاعتصام بحبل الله ليس مجرد شعار يرفعه المسلمون وانما له مقتضيات
لا يتحقق بدونها ولا يقع عند الله موقع القبول الا اذا تحققت وقام
المعتصمون بتبعاتها على الوجه الذى رسمه الله فى كتابه طريقا لكمال الانسانية
ورقيها ، فهو يقضى بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها العصبيات
القبلية والجنسية والمذهبية ، ويقضى بالنظر السريع فى تنقية العقائد
والعبادات وسائر المشروعات الالهية مما يشوبها ويكدر صفوها من صور
الشرك والابتداع الذى هيأ لخصوم الاسلام أن يقولوا بتعددية الاسلام
ويزعموا أن الاسلام ليس دينا واحدا وانما هو أديان متعدد تختلف باختلاف
الأقاليم والمذاهب « كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا
كذبا » [٢٣] ·

٢ ـ البعد الانسانى :

ويتضح البعد الانسانى لوحدة الأمة الاسلامية جليا فى القرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة ·فالله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا الى وحدة
الأصل الانسانى · فالناس جميعا قد خلقهم الله من نفس واحدة : « يأيها
الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » [٢٤] ، ورسول ﷺ يؤكد
هذا المعنى أيضا فى قوله : « يأيها الناس ، الا ان ربكم واحد وأباكم

---

(٢٣) من توجيهات الاسلام للشيخ محمود شلتوت ص ٥١٢ مطبوعات
الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالازهر ١٩٥٩ · ونلفت النظر فى هذا
الصدد الى أن البعد الدينى كان العامل الحاسم فى صمود الشعب الجزائرى
فى وجه المستعمر الغاشم ، كما كان البعد الدينى أيضا هو الذى جعل
المجاهدين الأفغان صامدين حتى اليوم ضد المحتل الغاصب ونعتقد ان
البعد الدينى ايضا هو الذى سيكون العامل الحاسم فى انتصار الشعب
الفلسطينى على المغتصبين الطغاة ·

(٢٤) سورة النساء آية ١

واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر الا بالتقوى »[٢٥] .

والاسلام لا يفصل هذا البعد الانسانى عن البعد الدينى الذى أشرنا اليه كما كانت تفعل — ولا تزال — بعض الأيديولوجيات والفلسفات فى القديم والحديث التى تصل بالانسان الى حد التأليه وتجعله صاحب السلطان الأوحد فى هذا الكون . ويبين لنا القرآن الكريم أن الانسان الذى ينكر أصله أو يجحد خالقه هو انسان يعمل ضد طبيعته وفطرته التى فطره الله عليها ، فالله سبحانه قد أخذ عليه ميثاقا لا يجوز له أن يتجاهله أو يغفل عنه لأنه مركوز فى أصل فطرته . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين »[٢٦] .

ومن بين القلائل من فلاسفة الغرب الذين أكدوا هذا المعنى كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى قال : « والحق أنه لا ينبغى أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فى هذه الفكرة (أى فكرة وجود الله) لكى تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته »[٢٧] .

وهذا الارتباط الوثيق بين كل من البعد الدينى والبعد الانسانى فى وحدة الأمة الاسلامية له دلالة هامة ، اذ يعنى ان هذه الأمة التى أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس من شأنها أن تكون عنصر أمان

---

(٢٥) مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٤١١ — المكتب الاسلامى للطباعة والنشر بيروت ، وقد رواه الترمذى أيضا فى سننه ج ٤ ص ٣٨٩ (مجلد ١٤ من طبعة اسطنبول للكتب الستة) .

(٢٦) سورة الأعراف آية : ١٧٢

(٢٧) التأملات لديكارت ترجمة د. عثمان أمين ص ١٥٥ القاهرة ١٩٥١

واستقرار فى هذا العالم . فهى أمة ترتبط بخالقها بعلاقة العبودية له سبحانه وترتبط بغيرها من بنى البشر بعلاقة الانسانية التى لا تنسى عبوديتها لخالق الكون كله . وهذه الصلة الوثيقة بالله اذا استقامت فانها كفيلة بتصحيح مسار الأمة الاسلامية فى هذا الوجود وبذلك تتحقق خيريتها ـ انها أمة تسع الانسان أينما كان وأنى كان وتشمل برعايتها وأمنها كل من يعيش على أرضها . أمة يرى خليفتها عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخا يهوديا يتكفف الناس فى شوارع المدينة فيفرض له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ذل السؤال .. أمة يفرض عليها دينها حقا للجار غير المسلم على جاره المسلم ، امة يؤكد كتابها الكريم المعنى الانسانى الشامل الذى يؤكد كرامة الانسان وحرمته فى قوله تعالى : « من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »(٢٨) .

٣ ـ البعد الاجتماعى :

اذا كانت الأمة الاسلامية ترتبط فيما بينها بروابط العقيدة والانسانية فان محصلة هذين البعدين هى الاخوة التى هى أقوى من أخوة النسب . ومن هنا كان قول القرآن الكريم : « انما المؤمنون اخوة »(٢٩) .

وعندما ما أراد النبى ﷺ أن يؤسس قواعد المجتمع الاسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فتآلفت قلوبهم بفضل الله . وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال : « فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا »(٣٠) .

وهذه الأخوة لها حقها فهى تتضمن بعدا عاطفيا يتمثل فى المشاركة الوجدانية . فكل فرد من افراد الأمة الاسلامية يشعر بآلام وآمال امته

(٢٨) سورة المائدة آية : ٣٢
(٢٩) سورة الحجرات آية : ١٠
(٣٠) سورة آل عمران آية : ١٠٣

لأنه جزء منها يحس باحساسها ويسعد لسعادتها ويتألم لألمها . ومن هنا كان قول النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٣١) .

ولكن مجرد المشاركة الوجدانية ـ مع أهميتها ـ لا تكفى . ولابد أن يترجم هذا الشعور الداخلى الى عمل فعال يكون من شأنه النهوض بالأمة وبأفرادها . ومن هنا كان مبدأ التكافل فى الاسلام بمثابة ترجمة عملية لذلك الشعور الباطنى لدى المسلم . وقد جعل الاسلام هذا المبدأ عبادة مفروضة يتعبد بها المسلم ويتقرب بها الى ربه وهى فريضة الزكاة .

فالزكاة اذن ليست مجرد تبرع يجود به المسلم أولا يجود وانما هى حق المال وهو حق الزامى واجب الأداء من طيبات ما كسبنا ، وهو حق لا يجوز التهاون فيه بأى حال من الأحوال . فالله سبحانه قد استخلف الانسان فى المال الذى هو مال الله وأمره بالانفاق منه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٣٢) .

ومن هنا نفهم لماذا حارب أبو بكر رضى الله عنه ما نعى الزكاة لأنها ضرورة من ضرورات المجتمع الاسلامى فضلا عن أنها أحد أركان الاسلام الأساسية . فالأمة الاسلامية أمة متكافلة ولا تتم وحدتها بدون هذا التكافل ، ولا يتم ايمان المسلم بدونه . وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم »(٣٣) .

---

(٣١) رواه مسلم والامام أحمد (راجع فيض القدير للمناوى ج ٥ ص ٥١٤ ـ دار المعرفة ـ بيروت) .

(٣٢) سورة الحديد آية ٧

(٣٣) رواه الطبرانى والبزار واسناده حسن (راجع : الترغيب والترهيب للامام الحافظ المنذرى ج ٣ ص ٣٥٨) .

وهـذا أمر لا ينطبق فقط على محيط التجمعات السكنية الصغيرة أو القرى أو المدن أو محيط كل دولة اسلامية على حدة ، وانما هى مبادىء مقررة تلتزم بها الأمة الاسلامية كلها حتى لا يكون هناك فقير أو محتاج على مستوى الأمة الاسلامية . فهموم هـذه الأمة ينبغى أن تشغل بال كل مسلم وكل حاكم فى العالم الاسلامى . وقد آن الأوان ليخرج المسلمون من دائرة المشاركة الوجدانية السلبية الى المشاركة الايجابية المؤثرة وذلك بوضع الخطط المفصلة لاقامة بنيان التكافل بين أبناء الأمة الاسلامية . وقد آن الأوان للأمم الاسلامية ان تنصهر فى بوتقة الوحـدة الحقيقية للأمة الاسلامية بتحقيق مبدأ التكافل والخروج من سجن الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة الى محيط الجماعة الكبرى التى ارادها الله أن تكون خير أمة خرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم التعاون فيما بينها على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان .

٤ ـ البعد الجغرافى :

لقد جعل الله للأمة الاسلامية من وضعها الجغرافى الذى تتميز به فى هـذا العالم وحدة طبيعية جامعة تمتد فى رقعة مترامية الأطراف متلاحمة الأجزاء . وقد صور العالم الجليل الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز هـذه الوحدة الجغرافية تصـويرا طريفا معبرا نقتبسه هنا لأهميته فى اعطاء صورة واضحة المعالم لهذا البعد الجغرافى . يقول رحمه الله :

« انما صورة جمل ضخم قد برك على الأرض بمؤخرته ولكنه اخذ يهم بالنهوض فنصب ساقيه الأماميتين ورفع رأسه ومد عنقه ، وقد سحب الى الأمام من مشفره بحبل وتدلى من عنقه حبل ثان ، واجتذب الى الوراء من منكبه بحبل ثالث كأنه المقود فى يد الراكب . أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الافريقية ، أعنى كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر ، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغنده ، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال ، وأما عنقه ورأسـه الممتدان فى قلب القـارة الأسـيوية فهى بلاد ايران

وأفغانستان وباكستان وما فوقهن ، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الأسيوية تمتد احداهما الى أقصى الشرق على المحيط الهادى أمام الجزر اليابانية ، وتمتد الأحرى الى الجنوب حتى تعبر القارة الأسيوية عند ملتقى المحيطين الهادى والهندى ، وهناك تؤلف مجموعة الجزر الأندونيسية . وأما المقود الذى يجذبه من منكبه الى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوربية تبتدىء من الأقطار التركية وتسير فى اتجاه شمالى غربى حتى تصل الى بحر البلطيق » .

وهـذه الوحدة الجغرافية التى تتضح لنا من خلال هـذه الصورة الملموسة من شأنها أن تمحو بين أقطار العالم الاسلامى تلك الحواجز الاقليمية المصطنعة فى شـئون الاقتصاد والانتاج . ومن شـأن الوحدة الجغرافية أيضا أن تيسر توزيع ثروتها المـادية بينها توزيعا ينشر فيهـا الرخاء ويحقق لها الاكتفاء الذاتى والاستغناء عما سواها »(٣٤)

ولا ينبغى أن يفهم من هذا التصوير للبعد الجغرافى محـــدودية الاسلام وانحصاره فى تلك البقاع . فالغرض كان فقط اعطاء صورة تقريبية لتلاحم مناطق العالم الاسـلامى فى عالمنـا المعاصر . ولسـنا فى حاجة الى ان نؤكد على عالميـة الرسالة الاسلامية ومسئولية المسلمين فى توصيلها الى كل مكان فى العالم بالحكمة والموعظة الحسـنة والجدال بالتى هى احسـن . فهذا امر يعد من البديهيات الاسلامية .

٥ ـ البعد الحضـارى :

الاسلام ليس دين طقوس تعبدية جامدة ، انه دين للحياة بكل أبعادها والأمة الاسلامية أمة أراد الله لها أن تكون صاحبة رسـالة دينية وحضارية فى هـذا العالم ، ومن هنا كان وصفها بانها خير امة اخرجت للناس .

وقد رسم القرآن الكريم للانسان الاطار العام فى كل أموره الدينية والدنيوية واستخلف الله الانسان فى الأرض وكلفه بعمارتها وصنع الحضارة

(٣٤) فى الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٦٧ م .

فيها ، ووعد المؤمنين العاملين بالتمكين لهم فى الأرض وكتب لهم العزة والنصر • وتحقيق ذلك كله أمر منوط بالانسان وبتأييد من الله •

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله وعملوا على تحقيقه ، وقد تحقق لهم بالفعل ما ارادوا وما أراده الله منهم • وبذلك أقاموا صرحا شامخا لحضارة كانت من أطول الحضارات عمرا فى التاريخ • وقد اشترك علماء الأمة الاسلامية من كل جنس ولون فى اقامة هـذا الصرح الحضارى بدافع من الاسلام الذى رفع من شأن العلم والعلماء واعتبر مداد العلماء مساويا لدماء الشهداء ، وجعل العلماء أخشى الناس لله •

وسارت جهود علماء المسلمين فى مجالات العلوم الدينية والدنيوية جنبا الى جنب فى تكامل رائع ، فقد أدركوا أن الحضارة تعنى تقدما ماديا وروحيا وأخلاقيا ، وبذلك قدموا للانسانية خدمة كبرى فى الوقت الذى كان فيه العالم غير الاسلامى لا يزال يعيش فى جهالة جهلاء • وترك لنا الأسلاف تراثا ضخما يعد أغنى تراث فى العالم يعبر عن وحدة جهود علماء الأمة الاسلامية بصورة رائعة • ويشترك المسلمون اليوم فى كل مكان فى العالم الاسلامى فى الاعتزاز بهذا التراث •

وقد آن الأوان للأمة الاسلامية أن تتوحد جهودها مرة اخرى فى سبيل النهوض بالأمة والارتقاء بها حضاريا بما يؤكد شخصيتها المتميزة ويحافظ على ذاتيتها مسترشدين فى ذلك بتعاليم الاسلام الشاملة وبالجوانب الايجابية المشرقة فى تراثنا • فلا يليق بالأمة الاسلامية ان تظل فى عالمنا المعاصر قابعة فى مقاعد المتفرجين الذين لا يشاركون فى صنع الحضارة ، ويكتفون بدور المستهلك لما تنتجه الحضارة التى يصنعها غيرنا فى الوقت الذى لا تعرف البشرية فيه دينا آخر غير الاسلام يشتمل على كل المقومات والأسس التى تحقق للبشرية أفضل المستويات الحضارية ماديا وروحيا وأخلاقيا •

والرسالة الدينية الحضارية المنوطة بالأمة الاسلامية لا يمكن تاديتها والقيام بحقها الا اذا توحدت جهود الأمة الاسلامية دينيا وفكريا وحضاريا ــ وواجبها يفرض عليها فى هـذا الصدد أن تقدم للعالم هـذه الرسالة الدينية

الحضارية فى صورة أنموذج متحقق فى عالم الواقع • فليس بالأقوال تؤدى الرسالات الكبرى ولكن بترجمة الأقوال الى برامج عمل • ومن هنا كان اللوم والمقت للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(٣٥) •

٦ ـ البعد المصيرى :

واذا كانت الأمة الاسلامية ترتبط فيما بينها برباط دينى واحد وتجمعها وحدة جغرافية طبيعية ولها رسالة نورانية حضارية فى هذا الوجود فان ذلك يعى غايات واحدة وأهدافا مشتركة ويعنى فى النهاية مصيرا واحدا •

ومن أجل حماية هذا المصير الواحد وصونا للمبادىء السامية والمثل العليا التى تقوم بها ومن أجلها الأمة الاسلامية فلابد من اعداد القوة اللازمة لدرء الأخطار التى تحيط بها سواء كانت هذه الأخطار قائمة بالفعل أو محتملة الوقوع ، أى سواء كانت منظورة أو غير منظورة ، فالقوة فى كلا الحالين ضرورية • وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »(٣٦) •

والهدف الذى من أجله يدعو القرآن الكريم الى هذا الاستعداد الحربى بكل ما أوتينا من قوة لا يرمى الى التخريب والتدمير أو الاستعباد والاستعمار أو سلب الآخرين أموالهم وأوطانهم وأمنهم ، وإنما يرمى الى دفع شر الأعداء وتخليص المستضعفين من أيدى الظالمين المعتدين وافساح الطريق أمام دعوة الخير الذى يريده الله لعباده •

وقيام هذه القوة يعد من أقوى وسائل السلم الذى أمر الله به • ومن هنا كان التاكيد فى الآية على قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » فهى قوة تحمى السلم والأمان والاستقرار •

---

(٣٥) سورة الصف آية ٢ ، ٣

(٣٦) سورة الأنفال آية ٦٠

ومثل هـذه القوة لا تتأتى الا بوحدة الأمة الاسلامية ٠ فهذه الوحدة هى السد المنيع والحصن الحصين فى وجه كل الأطماع التى تستهدف اضعاف الأمة الاسلامية واثارة الفتن والخصومات بين أبنائها ٠

وعلى الأمة الاسلامية صاحبة المصير المشترك أن تعيد النظر فى قائمة الأولويات للقضايا والهموم التى تحيط بها فى عالمنا المعاصر فتشغل نفسها لا بالقضايا الهامشية بل بالقضايا المصيرية وعلى رأسها قضية التخلف التى تمثل الهم الأكبر للامة الاسلامية اليوم ٠ والتخلف الذى أعنيه يشمل المجالات الروحية والمادية والأخلاقية والعلمية والحضارية بصفة عامة ٠ وتلك قضية مصيرية لا يجوز التهاون فيها أو التفريط فى معالجتها بما تستحقه من اهتمام وعناية ٠

***

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الاسلامية

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على أهم الأبعاد التى تشتمل عليها وحدة الأمة الاسلامية لابد لنا من التنبيه الى المخاطر التى تهدد صرح هذه الوحدة ٠ وقد حذر الاسلام من الوقوع فى شراكها ٠ وتتلخص هـذه المخاطر فى عنصرين أساسيين يمكن أن ترد اليهما جميع الأسباب الفرعية الأخرى التى تستهدف اضعاف الأمة الاسلامية وكسر شوكتها ٠

وأول هذه العناصر يتمثل فى الفرقة والتنازع والصراعات المدمرة التى تعد مدخلا خطيرا لانهيار وحدة الأمة الاسلامية ، سواء كان هذا التنازع والتفرق فى أمور الدين أو السياسة والملك أو بسبب الفوارق الطبقية الصارخة أو بسبب الصراعات القبلية أو العرقية التى تحيى ما كان قائما فى الجاهلية . وقد جاء التحذير الالهى من ذلك حاسما قاطعا فى عبارة قصيرة تبدأ بالحث على التمسك بالوحدة وتحذر فى الوقت نفسه من التفرق ، وذلك فى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[٣٧]

---

(٣٧) سورة آل عمران آية ١٠٣

وفى آية أخرى يأتى التنبيه الى نتيجة التفرق والتنازع وذلك فى قوله تعـالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »[٣٨] . وهكذا تؤدى الفرقة والتنازع والتناحر الى الفشل الذى تكون نتيجته النهائية هى ذهاب قوة المسلمين وضياع عزتهم ومنعتهم . وبذلك يكونون لقمة سائغة فى يد اعدائهم تداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها .

أما العنصر الآخر الذى يحذر الاسلام منه فيتمثل فى **موالاة الأعداء** . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون »[٣٩] .

وختام الآية أمر فى غاية الأهمية لمن يتأمل . فالله قد وضح لنـا الطريق وكشف لنا عن مخاطره وعثراته وعلينا أن نتدبر أمرنا بعقولنا التى منحها الله لنا لنميز بها الخبيث من الطيب « قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة »[٤٠] .

ولا يخفى على أحد أن هناك كثيرا من الممالك الاسلامية فى القديم والحديث قد ضاعت بسبب موالاة الأعـداء والركون اليهم والوثوق بهم والاستعانة بهم على حرب المسلمين بعضهم بعضا ، ولم يكن ذلك السلوك الا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

* * *

---

(٣٨) سورة الأنفال آية ٤٦

(٣٩) سورة آل عمران آية ١١٨

(٤٠) سورة الممتحنة آية ١

خاتمة : واقع الأمة الاسلامية وآفاق المستقبل

ان الواقع الذى تعيشه الأمة الاسلامية اليوم يعد واقعا مؤلما كما يجب أن نعترف بذلك جميعا ، وهو واقع يسير فى اتجاه مضاد لكل مثاليات وحدة الأمة الاسلامية . فالنزاعات القائمة اليوم بين أبناء الأمة الاسلامية أكثر منها فى اى مكان آخر فى العالم ، ومؤسسات العمل المشترك فى العالم الاسلامى ليست أكثر من واجهة تحمل شعارات طنانة لا تعنى شيئا ، وأمور المسلمين المصيرية يقررها غيرهم . وأقرب مثل على ذلك كان الاتفاق الذى تم بشأن أفغانستان منذ بضعة أشهر فقد تم توقيع هذا الاتفاق لا من جانب أصحاب الشأن وأصحاب القضية وهم المسلمون ولكن من جانب الدولتين العظميين .

وهذا الواقع المؤلم يدفع الى طرح تساؤلات عديدة :

هل يجهل أبناء الأمة الاسلامية فى عالم اليوم الأبعاد الحقيقية لوحدة الأمة الاسلامية ومن هنا يعملون فى اتجاه معاكس لها أم أنهم يدركون تماما كل ما تعنيه هذه المقومات بالنسبة لحاضر الأمة الاسلامية ومستقبلها ومع ذلك فهم لا يصنعون شيئا ؟

انه اذا كانت الأولى فتلك مصيبة وان كانت الثانية فان المصيبة اعظم .

ما لنا نرى هذا البون الشاسع بين النموذج والواقع ؟

وما لنا نرى الأمة الاسلامية قد تفرقت السبل بابنائها ؟

أين الخلل ؟ هل هو فى المشروع الحضارى الاسلامى أم هو فى الواقع المحير والمشحون بالتناقضات الحادة والذى يعيشه ابناء الأمة الاسلامية ؟

أم أن الخلل فى الفهم السقيم والمعوج لقيم وتعاليم الاسلام ؟

ما سبب هذا التبلد الذى أصاب الأمة الاسلامية فى عالمنا المعاصر ؟

أين ذلك كله من تلك الأمة التى وصفها القرآن الكريم بانها خير امة أخرجت للناس ؟

لسـنا نريد الدخول فى تفاصيل ذلك كله الآن • لأن موضوعنا ينصب فقط على توضيح مفهوم وحدة الأمة الاسلامية ، ولعل موضوعات هـذا الملتقى المبارك تغطى هـذه الجوانب كلها أو معظمها • ولكننا نستطيع أن نقول باختصار ـ كما قال الراحل مالك بن نبى أيضا ـ : « ان التخلف الذى تعانى منه الأمة الاسلامية اليوم يعد عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين » •

ومن ناحية أخرى فان صلاح حال الأمة الاسلامية لن يتم الا بارادة أبنائها ولن ينزل علينا من السـماء • فاذا صحت ارادة الأمـة وصدقت العزائم وخلصت النيات فلا شك أن الله سبحانه وتعالى سيكون مع هذه الأمة بالتأييد والنصر • وهـذا قانون قرآنى ثابت تعبر عنه الآية الكريمة : **« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »** (سورة الرعد ١١)•

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة السوداء التى تغطى سماء الأمة الاسلامية فنحن لسنا يائسين فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون •

ولا زلنا نأمل فى تيقظ وعى الأمة وصحوة ضميرها وتجديد شباب عقيدتها ونقاء فكرها حتى تأخـذ مكانها اللائق بها بين الأمم فى عصر التكتلات الدوليـة •

فلا يليق بكرامة هـذه الأمة أن تعتمد فى غذائها بنسبة سبعين فى المـائة على غيرها من دول العالم ، ومن المعلوم أن من لا يملك غذاءه لا يملك قراره • لا زلنا نأمل أن تعود هـذه الأمة صاحبة قرارها ومقررة مصيرها ، وأن تسهم اسهاما حقيقيا فى تقرير مصير هذا العالم •

لا زلنا نأمل فى غد مشرق للأمة الاسلامية ، تتوحد فيه جهودها وتتفق على الأقل على قضاياها المصيرية • ونرجو أن تتحول هذه الآمال عن قريب الى برامج عمل لمصلحة هـذه الأمة حتى تحقق ما أراده الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس قولا وفعلا •

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •



الفصل الثانى

القرآن الكريم وخصائص المجتمع الاسلامى

● تحديد المفاهيم .

١ ـ وحدة العقيدة والمبادىء .

٢ ـ الأخوة .

٣ ـ المساواة .

٤ ـ التكافل .

٥ ـ التعاون والتراحم والمحبة .

٦ ـ الشورى .

٧ ـ العزة والمنعة .

٨ ـ التسامح والروح الانسانية الشاملة .

● خاتمة .



● تحـديد المفاهيم :

قبل أن نبدأ حديثنا حول هـذا الموضوع نود أولا أن نحدد بعض المفاهيم التى وردت فى عنوان هـذه الندوة[1] • وقد لا يرى الكثيرون حاجة الى ذلك لوضوح هـذه المفاهيم فى الأذهان ، ولكن من باب التذكرة فقط لا من باب افتراض عدم العلم نشير الى ما نود التأكيد عليه من هذه المفاهيم • ونقتصر فى هـذا التحديد على مجرد الاشارة التى تغنى عن التفصيلات الكثيرة •

أما القرآن الكريم فغنى عن البيـان ما يعنيه بالنسـبة للمسلمين • ولكن الذى نود أن نبرزه فى هـذا الصدد هو أن هـذا القرآن الذى هو وحى الله هو كتاب للانسان ومن أجل الانسان • « فالقرآن كله اما حديث الى الانسان أو حديث عن الانسان » • وقد تكررت كلمـة الانسان فى القرآن ثلاثا وستين مرة ، وجاء الحديث بلفظ بنى آدم ست مرات وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة •

واذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله ﷺ فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الانسان بصفة خاصة • ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الانسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »[2] •

---

(١) ألقيت هـذه المحاضرة فى ندوة بمقر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية حول« القرآن الكريم وخصائص المجتمع الاسلامى » فى ١٦ رمضان ١٤٠٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٩٨٨

(٢) الخصائص العامة للاسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧ م •

ولا غرابة فى ذلك ، فالانسان قد جعله الله خليفة فى الأرض ، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات ، وميزه بالعقل والادراك ، وحمله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها . وقد تضمن القرآن دستورا ينظم للانسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس وحيوان ونبات وجماد .

هذا عن القرآن الكريم . أما خصائص المجتمع الاسلامى فان المقصود بالخصائص تلك الصفات التى لا تنفك عن الشىء وتميزه عن غيره . ووصف المجتمع بأنه اسلامى يعنى أنه مطبوع بالطابع الاسلامى خاضع لتعاليمه ملتزم بمبادئه وتشريعاته . أما المجتمع فمعناه مجموعة أفراد تربطهم علاقات منظمة وخدمات متبادلة وتسودهم روح عامة وتقاليد مشتركة يخضعون لها جميعا . فللمجتمع سلطان على افراده كالأسرة والامة .

فالمجتمع اذن ليس مجرد اجتماع أفراد فى مكان وزمان معينين ، ولكنه يعنى تفاعل الأفراد فى مجتمع من المجتمعات تفاعلا يراعى فيه كل مكونات هذا المجتمع وحركته فى الزمان وآماله وتطلعاته فى المستقبل .

فالتركيب الاجتماعى ليس تركيبا حسابيا ولكنه أشبه بالتركيب الكيماوى الذى تتفاعل فيه العناصر التى شكلته .

وهناك فيما يتعلق بتحديد الصلة بين الفرد والمجتمع وجهات نظر فلسفية متناقضة جعلت من الفرد والمجتمع خصمين متصارعين . فالفلسفات والنظم الجماعية تقرر الغلبة للمجتمع وتتجه هذه النظم الى انكار ذاتية الفرد والغاء شخصية الانسان مقابل المجتمع الذى ينظم كل شىء .

وأما الفلسفات والنظم الفردية فانها على العكس من ذلك تقرر أن الغلبة للفرد ولذلك ترفض تقييد حريته فى اختيار طريقه فى حياته الخاصة أو العامة .

ولكن الاسلام لا يقر هذا الصراع بين الفرد والمجتمع . فالنزعة الفردية والنزعة الاجتماعية أصيلتان فى فطرة الانسان . واذا كان الاسلام

قد قرر المسئولية الفردية فى صراحة ووضوح فانه قد قرر فى الوقت نفسه على الفرد واجبات مخصوصة نحو الجماعة ودمجه فى مسئولية مشتركة عن المجتمع ، كما أشرك المجتمع فى مسئوليته عن الفرد[٣] .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تؤكد على المسئولية الفردية . ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « **بل الانسان على نفسه بصيرة** »[٤] ، « وأن ليس للانسان الا ما سعى »[٥] ، كما أن هناك آيات أخرى وأحاديث نبوية تحض على التعاون والعمل المشترك وتبرز المسئولية المشتركة ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « **والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » وقوله تعالى : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** »[٦] . وأما عن المسئولية المشتركة فان النبى ﷺ يصورها لنا أبلغ تصوير فى قوله « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا »[٧] .

---

(٣) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبد الكريم العثمان ص ٢٧٧ وما بعدها . بيروت ١٩٧٢ . وراجع : مدخل الى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ومن ترجمتنا ص ١٤٣ ـ ١٥٤ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ م .

(٤) سورة القيامة آية ١٤

(٥) سورة النجم آية ٣٩

(٦) سورة المائدة آية ٢

(٧) رواه البخارى جـ ١ ص ٦٩ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ٤) .

وقد قضت الحكمة الالهية من خلق الانسان تحقيق الاجتماع الانسانى على اساس من القيم الانسانية • فالقرآن الكريم عندما يتحدث عن خلق الانسان وخلق ما يعينه على المعيشة فى الحياة الدنيا من حيوان ونبات يتحدث عن « الزوجية » فى الذكورة والأنوثة فى الانسان والحيوان والنبات فيجعل لهذه الأنواع الثلاثة هدفا مشتركا يتمثل فى الكثرة والزيادة العددية فيها ، بينما يضيف فى جانب الانسان وحده الى هذا الهدف المشترك هدفا آخر خاصا به هو هدف قيام المجتمع البشرى وتحقيق أغراضه[8] • فيقول فى شأن هذا الهدف الخاص بالانسان : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة • ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[9] •

وهكذا نجد أن القرآن ينظر الى قيام المجتمع الانسانى على اساس من القيم الانسانية الرفيعة التى عبر عنها فى الآية الكريمة بالسكن أى الاستقرار والمودة والرحمة وهى تلك الروابط الانسانية التى تبنى مجتمع الحضارة الانسانية •

تلك نظرة القرآن الى أساس بناء المجتمع الانسانى السليم • وهذا اجمال يحتاج الى شىء من التفصيل •

وتأسيسا على ذلك يمكننا أن نقول ان المجتمع الاسلامى يقوم على عدة عناصر رئيسية تميزه عن غيره من المجتمعات ومن اهمها ما يلى :

١ ـ وحدة العقيدة والمبادىء :

يقوم المجتمع الاسلامى على أساس الايمان بالله الواحد الذى خلق هذا الكون بما فيه ومن فيه والذى أرسل الرسل الذين كان

---

(٨) القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهى ص ٣ وما بعدها • مكتبة وهبة ١٩٧٦ م •

(٩) سورة الروم آية : ٢١

خاتمهم محمد ﷺ ، وعلى أساس من هذه العقيدة تتفرع مبادىء ومفاهيم وأفكار وعواطف وتتولد عنها نتائج هامة كان لها ولا يزال اثرها البالغ فى مجرى تاريخ الشعوب . وتتجلى هذه العقيدة وتلك المبادىء فى العديد من المظاهر الحياتية للمجتمع الاسلامى أبسطها السلام والتحية .

وهذا الايمان قوة غامرة وطاقة جبارة تفعل فعلها فى النفوس ، واذا كان الايمان صادقا خالصا مخلصا انقلب الى عمل صالح ، ومن هنا كان التأكيد فى القرآن الكريم على ارتباط الايمان بالعمل الصالح حيث ورد ذلك فى سبع وخمسين آية . فالمجتمع الاسلامى مجتمع المؤمنين العاملين لا مجتمع المتبطلين العاطلين . والايمان ـ كما ورد فى الأثر ـ ليس بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل وان قوما غرتهم الأمانى وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل[١٠] .

ومن هنا نستطيع ان نقول ان المجتمع الاسلامى يقوم على اساس فكرى واحد . فالمسلمون جميعا لهم مفاهيم متماثلة وان اختلفوا فى مستوى فهمها[١١] . ويقوم البناء الأخلاقى على هذا الأساس العقدى . فقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[١٢] .

---

(١٠) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس على أنه حديث شريف . وقد جاء فى (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للعلامة المناوى ـ جـ ٥ ص ٣٥٦ ـ أنه حديث ضعيف وقال : « وقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو الصحيح » . وسواء كان حديثا أم قولا ماثورا عن الحسن فان المعنى المقصود صحيح ولا غبار عليه .

(١١) محمد المبارك : المجتمع الاسلامى المعاصر ص ٢٨ وما بعدها دار الفكر ـ بيروت ١٩٧١ م .

(١٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

ويشكل الايمان القاعدة الأساسية للبناء الأخلاقى كله . وهـذا ما يؤخذ من قول النبى ﷺ : « الايمان بضع وسبعون شعبة افضلها لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان »[١٣] .

ومن هنا يتبين أن المجتمع الاسلامى لا يقوم على اساس عرقى أو طبقى وانما يبنى على عقيدة معينة وضابط خلقى بعينه .

* * *

٢ ـ الأخـوة :

فالمؤمنون تربط بينهم رابطة الأخوة فى الله وفى العقيدة قبل أن تكون أخوة نسب . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « انما المؤمنون اخوة »[١٤] وعندما أراد النبى ﷺ أن يبنى المجتمع الاسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين اصحابه من المهاجرين والأنصار فتالفت قلوبهم بفضل الله . وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التالف فقال : « فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا»[١٥] وفى أية أخرى : «« والف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم »[١٦] وكل من يلتزم بأمر الله يستطيع أن يدخل فى دائرة هـذه الأخوة : « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم »[١٧] . وكل من آمن بالله ربا ومالكا ورضى بما جاءت به الرسل من الهدى ودين

---

(١٣) رواه الامام مسلم وابو داوود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة كما رواه البخارى والترمذى مختصرا (فيض القدير جـ ٣ ص ١٨٥ / ١٨٦) .

(١٤) الحجرات : ١٠

(١٥) آل عمران : ١٠٣

(١٦) الأنفال : ٦٣

(١٧) التوبة : ١١

الحق منهجا عمليا لحياته فقد أصبح من أجزاء هذا المجتمع وجزءا من أفراده ٠ وهكذا فان المجتمع الاسلامى مجتمع مفتوح لكل من يؤمن بعقيدة واحدة[١٨] ٠ فالمجتمع الاسلامى اذن مجتمع الأخوة وتلك خاصية ملازمة له فى كل زمان ومكان ٠

* * *

٣ ـ المساواة :

وهذه الأخوة تعنى الندية ٠٠ تعنى المساواة فى الاعتبار البشرى :
« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »[١٩] ٠

وقد أصل القرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الانسانية على مبدأ أن الكثرة التى خلقت من البشر مردها جميعها فى الخلق الى « نفس واحدة » فهم حتما متساوون فى خصائص الانسانية ٠ ولا يغير من المساواة فى القيمة البشرية لجميع الأفراد ما جد فى حياة الناس من غنى أو فقر وضعف أو قوة وعلم أو جهل الى غير ذلك من فروق ٠ فالاعتبار الوحيد فى التمايز والتفاضل هو التقوى : **« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ٠ ان اكرمكم عند الله اتقاكم »**[٢٠] ٠

واذا كانت التقوى هى معيار التفاضل فلا يجوز لأحد أن يسخر من غيره فلعله يكون عند الله خيرا منه : **« يأيها الذين آمنوا لا يسخر**

---

(١٨) معالم الثقافة الاسلامية ٢٨٠
(١٩) النساء آية ١
(٢٠) آية ١٣ من سورة الحجرات ٠
انظر أيضا : د ٠ البهى (طبقية المجتمع ص ٣٩ وما بعدها) ٠

قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن »[21] .

***

٤ ـ التكافل :

يترتب على الأخوة خاصية أخرى ترتبط بها ارتباطا تاما ، وتلك الخاصية هى **التكافل** :

فالاسلام يجعل الرعاية الاجتماعيـة من أنواع العبادة التى يتقرب بها الانسان الى الله · وأداؤها مترتب على الايمان بالله وبالوحى ·· يقول الله تعالى : « **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل · والله بما تعملون بصير** »[22] .

والعبادة التى فرضها الاسلام وجعل غايتها الرعاية الاجتماعية فى المجتمع هى الزكاة · وأداء هـذه الزكاة يكفل الرعاية الاجتماعية فى المجتمع الاسـلامى ضمانا لابعاد شبح الحاجة من المجتمع ·

وليست الزكاة تبرعا مرهونا بمشيئة الانسان ، بل هى حق المـال ، وهو حق واجب الأداء · فالمـال ملكيته خاصة ولكن منفعته عامة وله وظيفة اجتماعية ، وهو مال الله الذى استخلف الانسان فيه ، كما يقـول القرآن الكريم : « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** »[23] .

والزكاة عماد التكافل فى المجتمع الاسـلامى ، ويهدف نظام الزكاة الى الوقاية من مذلة حاجة الأكل والشرب والتمكين من تحقيق الاعتبار البشرى للانسـان وحماية القيم العليـا فى المجتمع من التدهـور أو اللامبالاة بها ·

---

(٢١) الحجرات آية ١١

(٢٢) البقرة آية ٢٦٥

(٢٣) الحديد آية ٧

ويتضح ذلك من التأمل فى تحديد مصارف الزكاة الواجبة على نحو ما جاء فى القرآن الكريم : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عزيز حكيم »(٢٤) .

* * *

٥ ــ التعاون والتراحم والمحبة :

وفى ذلك آيات عديدة فى القرآن الكريم وأحاديث كثيرة فى السنة النبوية . فالله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »(٢٥) والرسول يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم »(٢٦) ، « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »(٢٧) ويقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٢٨) .

ولم تكن هذه التعاليم الاسلامية مجرد شعارات لا مجال لها فى التطبيق ، أو مثاليات لا مكان لها الا فى رءوس أصحابها . فقد تجسدت هذه القيم الاسلامية فى عالم الواقع ، وكانت بالفعل هى التى تحكم علاقات المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، ولا تزال هى السبيل القويم لنهضة المجتمعات الاسلامية فى كل زمان ومكان .

* * *

٦ ــ من الصفات الملازمة للمجتمع الاسلامى خاصية الشورى :

وقد جاء الأمر بها فى القرآن الكريم صريحا واضحا لا لبس فيه : « وشاورهم فى الأمر » ، وقد كان النبى ﷺ يستشير اصحابه فى

---

(٢٤) التوبة آية ٦٠

(٢٥) المائدة آية ٢

(٢٦) الفتح آية ٢٩

(٢٧) الحشر آية ٩

(٢٨) رواه الامام مسلم فى صحيحه .

العديد من الأمور الهامة فى السلم وفى الحرب . وكان ينزل على رأى أصحابه حتى وان كان غير مقتنع بصواب رأيهم كما حدث فى الخروج الى غزوة أحد . وكان فى كل ذلك معلما لأمته مبينا لها طريق صلاحها وسبيل خلاصها ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : « ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ » . وروى الامام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما : « لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما » .

وقد ورد عن الحسن رضى الله عنه قوله : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فالرجل الرجل من له رأى ومشورة . والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له ، والثالث من لا رأى له ولا مشورة[(٢٩)] .

ومن ذلك يتضح أن الشورى بالنسبة لمجتمع المسلمين ليست مجرد رأى استشارى يؤخذ به أولا يؤخذ وانما هى ملزمة لولى الأمر بما يتفق ومصالح المسلمين . فقد وصف الله سبحانه المؤمنين بعدة أوصاف من بينهما التزامهم بالشورى وقرن ذلك باقامة الصلاة والانفاق مما آتاهم الله من فضله وذلك فى قوله تعالى : « **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** »[(٣٠)] .

* * *

٧ ــ من خصائص المجتمع الاسلامى أنه مجتمع القوة والعزة والمنعة :

فالمجتمع الاسلامى بما يمثله من قيم ايمانية وأخلاقية وانسانية فى حاجة الى قوة تحميه من أعداء الايمان وأعداء الأخلاق وأعداء الانسانية ، ومن هنا كان الأمر القرآنى باتخاذ الأسباب لبناء قوة تحمى كل هذه القيم

---

(٢٩) راجع : الشيخ محمد الغزالى : مائة سؤال عن الاسلام ــ الجزء الثانى ص ١٨ ــ القاهرة ١٩٨٤ م .

(٣٠) الشورى ٣٨

وترهب العدو حتى لا يجرؤ على الاعتــداء على المجتمع الاسلامى ٠ وفى ذلك يقول القرآن : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »[٣١] ، وهذا من شأنه أن يرفع الروح المعنوية للأمة ويجعلها عزيزة الجانب ٠ ومن هنا كتب الله العزة للمؤمنين ، وهى عزة مرتبطة بالعزة التى كتبها لنفسـه ولرسـوله كما يقول القرآن الكريم : « ولله العــزة ولرسوله وللمؤمنين »[٣٢] فهى من الله يمنحها ويمن بها على من استجاب لندائه وســار على سنة رســوله ، يبدلهم من بعد خوفهم امنا ومن بعد ضعف قوة ومن بعد ذلة عزا : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض »[٣٣]

واذا تم للمؤمنين هذا التمكين فى الأرض لا ينبغى لهم أن ينســوا أن ذلك من فضل الله وأنهم مطالبون بأن يؤدوا ضريبة هــذا التمكين الالهى كما قال تعالى : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »[٣٤] ٠

***

٨ ـ التسامح والروح الانسانية الشاملة :

ويتضح ذلك من العديد من الأمثلة : فالمشركون عندما كانوا مشتبكين فى قتال مع الرســول والمسلمين لم يمنع ذلك الرســول من أن يوصى بأسراهم خيرا ٠ واليهود يعدون من أشــد الحاقدين على الاســلام ولكن عمر رضى الله عنه حين يرى الشــيخ اليهودى يتكفف الناس يفرض له من بيت مال المسلمين ٠ وتتجلى تلك الروح الانســانية الشــاملة فى قوله

---

(٣١) الأنفال ٦٠

(٣٢) المنافقون ٨

(٣٣) القصص ٥ ، ٦

(٣٤) الحجر ٤١

تعالى : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياهم فكأنما أحيا الناس جميعا »[٣٥] .

تلك كانت أهم الخصائص العامة التى يتميز بها المجتمع الاسلامى . ولم يكن هدفنا من هذا العرض فى هذه المحاضرة هو الاستقصاء أو التفصيل ، وانما أردنا فقط ابراز بعض الأمثلة ، والا فهناك خصائص أخرى لا تقل أهمية ولا أولوية عن بعض الأمثلة التى ذكرناها . ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما تتميز به الأمة الاسلامية من الوسطية[٣٦] ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والايمان بالله . وكلها أمور تؤهلها لتكون خير أمة أخرجت للناس كما أشار الى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[٣٧] .

ويندرج تحت هذا الاطار العام الذى عرضناه حول موضوع خصائص المجتمع الاسلامى تفريعات كثيرة ومسائل جزئية عديدة تكفلت الشريعة الاسلامية ببيانها وتوضيحها من جميع جوانبها .

* * *

---

(٣٥) المائدة ٣٢

(٣٦) مصداقا لقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . سورة البقرة ١٤٣

(٣٧) سورة آل عمران آية ١١٠

● خاتمة : وفى نهاية حديثنا عن خصائص المجتمع الاسلامى نود أن نشير فى هذا الصدد الى نقطتين هامتين :

أولا : قد يقول قائل أن النظم الاجتماعية المعاصرة تعرف بعض هذه المبادىء أو كلها وبالتالى فما ميزة المجتمع الاسلامى عندما يأخذ بهذه المبادىء ؟

وللاجابة عن ذلك نقول : انه لا يوجد نظام فى العالم يحرص على اقامة هذا التوازن وبناء المجتمع على أساس القيم الدينية والانسانية غير المجتمع الاسلامى الذى شرع له الله ما شرع من مبادىء تحكم مسيرته وهو سبحانه أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ٠

ومن ناحية أخرى فان ما تشرعه النظم المختلفة من قوانين وتسنه من نظم لتنظيم أمور المجتمع واقامة العدل بين الناس لا تهتم الا بالأعمال الظاهرة وليس له علاقة بباطن الانسان وتقوم على حراسته سلطة خارجية ٠

أما النظام الاسلامى فانه ينبنى على العقيدة ويقوم على القيم الانسانية المتفرعة من هذه العقيدة ومن هنا فان الدافع الى تنفيذ أحكامها وتطبيق تعاليمها ينبع من داخل الانسان وبرقابة باطنية من ضميره ٠ فالالتزام من أعماق الذات لا من سوط القانون وسلطة الشرطة ٠ فالتوجه حينئذ مجرد من كل غرض الا وجه الله كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »(٣٨) وقوله تعالى : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »(٣٩) ٠

---

(٣٨) الانسان ٩

(٣٩) الأنعام ١٦٢

ثانيا : أما النقطة الثانية فانها تتعلق بالصلة بين النموذج والواقع ٠ فقد يتساءل البعض – وبحق – : اذا كان النظام الاسلامى فى اقامة المجتمع بهذا السمو وبهذه المثالية فما بالنا نرى المجتمع الاسلامى فى عصرنا الحاضر مجتمعا متخلفا يسير فى مؤخرة الركب ؟ وما بال تلك الفجوة الكبيرة بين النموذج والواقع ؟ واذا كانت مبادىء الاسلام فى تنظيم امور المجتمع سليمة وكفيلة بضمان السعادة للبشر فما بال المسلمين فى حال لا يسر صديقا ولا عدوا ؟

وتلك أسئلة لها ما يبررها ولكن يجب التمييز بين الواقع المتدنى للمسلمين وبين تعاليم الاسلام ، فالتخلف القائم فى المجتمع الاسلامى يعد عقوبة مستحقة على المسلمين من الاسلام لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين ٠

ومن ناحية أخرى فان صلاح حال المسلمين بايديهم ولن ينزل عليهم ذلك من السماء فلا بد أن يغيروا أولا من أحوالهم حتى يمكن أن ياتيهم مدد السماء : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »(٤٠) ٠



---

(٤٠) الرعد ١١

الفصـــل الثـالث

رؤية اسلامية للمسئولية العـالمية المعاصرة

أولا : مدخل : المسئولية المعاصرة ٠

ثانيا : المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الاسلام ٠

١ ـ المسـئولية فى نظر الاسلام ٠

٢ ـ الانسان خليفة الله فى الأرض ٠

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم ٠

(ا) العقيدة ووحدة البشرية :
الوحدة فى العقيدة ٠

(ب) حرية الانسان ومصيره ٠

(جـ) الايمان والمســؤلية ٠

(د) دوائر المســئولية ٠



رؤية اسلامية للمسئولية العالمية المعاصرة(١)

أولا ـ مدخل : المسئولية المعاصرة :

اذا تأملنا فى عالمنـا المحيط بنا فاننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسـية التى طرأت عليه • ويرجع السبب فى ذلك الى أننا نحن البشر قد تغيرنا • فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات •

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة وأصبح لزاما على الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافا عظيما • فالجماعات التى كان ينظر اليها فى السـابق على أنها جماعات غريبة ، أو لا يزال ينظر اليها أيضـا حتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منتمية أو حتى معادية ـ كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى لا تزال شـائعة ـ لم يعـد فى الامكان رفض هـذه الجماعات بصفة عامة ، بل أصبح لزاما على المرء أن يبذل جهده فى فهمها وتقبلها على الأقـل بدرجة معينة • وقد أصبح فعل ذلك أمرا ضروريا حتى يمكن تفادى الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم •

---

(١) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمـانية لملتقى الأديان فى سانت ميرجن ـ فرايبورج بألمـانيا الغربية فى نوفمبر ١٩٨٦ م وقامت بنشره فى نهاية عام ١٩٨٧ م دار نشر هردر Herder الألمـانية المعروفة تحت عنـوان : « Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht »

وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور •

والسؤال الذى يمكن أن يفرض نفسه فى هذا الصدد هو :

هل المطلوب اذن أن نكون فى مستوى « فوق الحضارة » ــ اذا صح هذا التعبير ــ أى فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة ، أم أن المطلوب هو أن نزداد تاصلا ورسوخا فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتها فى كل الأحوال ؟

ألسنا سوف نتبين فى الحالة الأخيرة ايضا أننا جميعا فى نهاية المطاف نضرب بجذورنا فى ذات الأرض ويرتفع نمونا عاليا تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر الى مستوى السطحية والعزلة عن طريق الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم بشكل لم يسبق له مثيل ، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى الى جذوره فى حضارته الخاصة أو البحث عن اجابات عن الأسئلة التى تقلقه لدى الحضارات الأخرى .

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من اجابات الا اذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا . وهنا يبرز سؤال هام هو :

أمام من ومن أجل من نحن مسئولون ؟ وكيف اتوصل الى مسئوليتى تلك ؟

ان الانسان المعاصر ــ الذى بات قلقا على مصيره ــ اصبح ينقض فى ليله ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا »[٢] او كما كانت تفعل بنيلوبى Penelope فى الأسطورة

---

(٢) سورة النحل ٩٢

اليونانية المعروفة[٣] ، ويتمسك هـذا الانسان المعاصر ـ من ناحية ـ بحريته ، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية الا اذا تم ربطها باصلها ، أى بخالقها وهو الله ٠

وينبغى ان يكون واضحا تمام الوضوح لكل انسـان عاقل أنه يجب علينا جميعا أن نسلك سلوكا مسئولا ، لأن السلوك غير المسئول يرتد الينا فى نهاية فى أية صـورة من الصور ٠ فالعمل غير المسئول يترتب عليـه فى عالمنـا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها ، نظرا لأنه قد اضحى عالمـا صغيرا اختصرت فيـه المسـافات وتطورت فيـه وسـائل الاتصال الى درجة مذهلة ٠

أجل ، أن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره ٠ ومن هنا يدخل العالم أيضـا بمعنى من المعانى فى دوائر مسـئولياتنا الكثيرة ٠

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون فى كل العصور والذى يتمثل

---

(٣) يلاحظ أن هذا البحث قد أعـد فى الأصل ليخاطب الأوربيين ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضا بما هو معروف فى ثقافتهم ٠

وبنيلوبى المشـار اليها كانت ـ كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسـماة بالأوديسـة ـ ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك ايتـاكا Ithaka ٠ وكان هذا الملك قـد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته حتى ظن أنه قد مات ٠ وفى أثناء غيابه الطويل تقدم الى زوجتـه بنيلوبى كثير من العشـاق يطلبون الزواج منها قائلين ان زوجها لن يعود مرة ثانية ٠ ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلا منهم بموافقتها بعـد الانتهاء من نسـج بسـاط كانت قد بدأت فى صنعه ٠ وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفيـة لزوجها تنتظر عودته ٠ وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك وانتقم من كل العشـاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه ٠

فى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع - هذا الأمل قد أصبح اليوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة من قبل ٠

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقا من تحقيق هذا الأمل أيضا ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

اننا جميعا ، بوصفنا اعضاء فى المجتمع الكبير الذىهو العالم ، يعتمد بعضنا على بعض - كما هو واضح للجميع - ومن أجل ذلك فنحن مطالبون ، كل فى موقعه ٠ بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه ٠

ولكن كيف نفى بهذا المطلب ؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره ٠ تلك الصورة التى من شأنها أن توجه كل فرد الى مسئوليه بشكل محدد تمام التحديد ؟

وما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر ؟ وكيف يمكن ان يسهم الفرد بنصيب فى تحمل المسئولية عن العالم كله وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافية مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضا ؟

اننا اذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى الى مسالة الربط بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فانه يمكن الاجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

ان كلا من هاتين المسئوليتين مرتبط بالآخر ، فكل منهما متضمن فى الآخر ٠ ونظرا الى ان كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى اخص خصوصيات أفعاله فان تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم ادلنلادا

فى فراغ ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم • ونظرا الى أننا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفى مجتمعات تخضع لتأثيرات عالميـة فان المسـئولية الذاتية تعد اذن ـ بمعنى معين ـ مسئولية عالمية • فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى ، كما أن رفض التصرف يعـد أيضـا تصرفا وله نتائجه التى تترتب عليه •

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحدة لانتاج هذه المسـئولية ؟

ان من الواضح أن الاجابة عن ذلك ستكون بالنفى ، والا فكيف يمكن ان يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف ابشـع انواع الجرائم واشد أعمال العنف منافاة للمسـئولية والانسـانية على السواء باسم المسـئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر ؟

هل يوجـد هناك اليوم طريق مستقيم ـ ليس فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضـا ـ لسلوك مسئول مسئولية عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسـئولية العالميـة من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث • ولكننا لسـنا مراقبين خارجيين لأننا نحن أنفسـنا نقف فى وسـط الأحداث •

فكيف يكون الوضـع اذن من الداخل من خلال موقف فكرى ، اى من موقف كل فرد منا ؟

ان كل فرد منا عليه أن يوجه الى نفسـه هذا السؤال • ومن الواضح أن هذا أمر يتطلب الصبر وطول النفس •

والاجابة عن هذا السـؤال ـ بالنسبة لنا نحن المسلمين ـ تنبثـق بطبيعة الحال من منظور اسـلامى • ولكن ذلك لا يعنى منظورا محدودا أو صالحا فقط لجماعة معينـة وانما يعنى منظورا كليـا شـاملا • وهذا ما سنحاول توضيحه فى السـطور التالية : . . .

ثانيا ـ المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الاسلام :

١ ـ المسئولية فى نظر الاسلام :

لعلنا نستطيع أن نقترب من الاجابة عن السؤال المطروح حول المسئولية عن العالم اذا تأملنا عن قرب كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها .

ان الفعل سأل يعنى التوجه الى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جوابا ولهذا يقال ـ كما فى القاموس المحيط ـ « أسأله سؤله ومسألته قضى له حاجته » .

والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم للنبى ﷺ : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان** »(٤) .

وقد يكون النداء منبعثا من داخل الانسان لا من خارجه . ومن الفعل سأل اشتقت كلمة المسئولية . وتحمل المسئولية على هذا يعنى اعطاء رد ايجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال . والتحلل من المسئولية فى المقابل يعنى اعطاء رد سلبى على هذا النداء .

والمسئولية من الصفات التى تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل الى ما بعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(أ) مرحلة ما قبل الفعل : وهى مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل . والمسئولية هنا تنظر الى المستقبل فهى مسئولية تكليف ومطالبة .

(ب) مرحلة الاجابة لهذا النداء بالايجاب أو السلب .

---

(٤) سورة البقرة آية ١٨٦

(جـ) مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الاجابة . وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل . والمسئولية هنا تلتفت الى الماضى فهى مسئولية استجواب ومحاسبة .

والالزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجه اليه النداء له شخصيته المستقلة وله حريته فى القبول أو الرفض وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه ارادته . والمسئولية بهذا المعنى صفة تشريف لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة(٥) .

واذا كان مفهوم المسئولية يتضمن ـ كما رأينا ـ الاجابة على النداء ايجابا أو سلبا فان هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ والتى تتمثل فيما يلى :

لمن أقدم هذه الاجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل الى تحديد مصيرى بنوع الاجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى على أو كيف أستطيع أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الاجابة سلوكا مسئولا ؟

اننى اذا نظرت الى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية وليس بوصفه مجرد مرحلة أو مقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فانى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر على هذه الأسئلة .

فهذه الأسئلة تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح ، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضا أسئلة لا مبرر لها وليس لها وجود حقيقى . وتتحول المسئولية الذاتية لديهم

---

(٥) راجع : دراسات اسلامية للدكتور / محمد عبد الله دراز ص ٥٢ وما بعدها ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٠ ، وانظر أيضا كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٩ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٣ م .

الى مصلحة ذاتية وقتية أو الى مصلحة الجماعة على أفضل تقدير . والمسئولية عن العالم بالنسبة لهم هى أيضا ـ على افضل الفروض ـ مصلحة عالمية ـ ونظرا لأنهم محصورون فى نطاق الصورة المادية للعالم فانهم لا يستطيعون أيضا أن يستمروا فى طرح الأسئلة خارج هذا النطاق . وبذلك ينتمون الى تلك الفئة التى وصفها القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون »**[٦] .

صحيح أن هناك كثيرين فى عالم اليوم على وعى بضرورة المسئولية العالمية المشار اليها ، تلك المسئولية التى يصادفونها يوميا فى حياتهم ، ولكنهم لا يثقون فى أية جهود لحل هذه المشكلة حلا جذريا بطريقة معقولة وبدلا من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك ، « عملى » ولكن دون ميل الى البحث عن بواعثه عن قرب . تلك البواعث التى قد تكون مثارا للشكوك.

وعلى العكس من الحيوانات فاننا نحن البشر لا نسير وفقا لغرائزنا ، فنحن كائنات عاقلة . وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير ونسير طبقا لما تمليه علينا عقولنا . وهذه الكائنات العاقلة لا تتبع أى قائد بلا وعى كما هو الحال مثلا مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ويحذو حذوه حتى فى الوقوع فى الهاوية .

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : **« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى »**[٧] .

ونحن أحرار فى أن نسلك سلوكا عاقلا أو سلوكا غير عاقل . واذا

---

(٦) سورة الأعراف ١٧٩

(٧) سورة الاسراء ١٣ ـ ١٥

أعملنا عقلنا الواعى وقلبنا الفاهم فانه ينفتح أمامنا عالم جديد · ولكن اذا اعتبرنا عالم المـــادة هو الحقيقة النهائية ولم نحاول أن نحكم عقلنا وننظر الى أبعد من ذلك فاننا سنظل حبيسين فيه أيضا وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه ·

ولكن هذا العالم المـــادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة للانسان المؤمن · ومن هنا فان الاجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمرا ميسورا واضحا تمام الوضوح · فالمسلم الثابت على عقيدته الراسخ فى ايمـــانه الذى لا يسلم زمام أمره لهذا العالم وانما يسلم أمره لله وحده لأنه هو الذى يهديه الى سبيل الرشاد ، ومن اجل ذلك فهو سبحانه محل ثقته المطلقة ـ هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه واعماله كلها ـ سواء كانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح ـ لا يقدم اجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى وانما يقدمها لله وحده ـ وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة: **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له »**[8] ·

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه اليه والاعتماد عليه وتفويض الأمر كله اليه ، فالمرجع والمصير اليه لأنه رب كل شىء :

« قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »[9] ·

وهكذا فان المطالبة بالمسئولية ـ فى نظر الاسلام ـ تعد مطالبة بتقديم اجابة بطريقه حرة · فكل انسان فى موقعه وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ اجاباته (مسئولياته) فى حرية · وهنا تكمن الصعوبة أيضـــا فى تقديم اجابات جاهزة للآخرين · فالصلة بين الانسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة · ومن هنا فان النموذج المثالى يرفض التقليد الا اذا كان مبنيا على اقتناع ·

---

(٨) سورة الأنعام ١٦٢ ـ ١٦٣

(٩) سورة الأنعام آية ١٦٤

والاسلام يحث على الاستقلال فى الفعل ويؤكد النبى ﷺ هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله : لا تكونوا امعة : تقولون ان احسن الناس أحسنا وان ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا انفسكم ان أحسن النـاس أن تحسنوا وان أساءوا فلا تظلموا »[١٠] .

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الاجابات المناسبة بسلوكه المسئول. ولكن مشكلة الانسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة وفى اعتقاده انه يملك بالفعل الاجابات التى يبحث عنها .

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الانسان الاجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ولمن يقدمها ؟

ان كل أمرىء يتأمل فى موقفه الانسانى متحررا من كل الاحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكا مسـئولا اذا لم يظل واقفا عند الاجابات الجاهزة المعطاه سلفا . فالانسان قـد جىء به الى هذا العالم من قوة خارجة عنه ، وهذه القوة هى التى تحفظه حيا وهى التى تخرجه مرة أخرى من هذا العالم الى عالم اخر فى وقت مجهول لديه - وقد جاء القرآن الكريم للانذار والتبشير : « **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »[١١] .

وبوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلا : « **قل ارايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ؟** »[١٢] .

ان هناك نداء موجها الى الانسان - الذى يشعر فى ذاته بأنه مركز

---

(١٠) رواه الترمذى .
(١١) سورة الأحقاف اية ١٢ - ١٣
(١٢) سورة فاطر آية ٤٠

عالمه · والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الانسانى معنى · فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

اننى اذا رأيت صورة من الصور المرسومة ادرك أن شخصا ما قد قام برسمها ، فاذا تأملت العالم من حولى تأملا واعيا فانى أرى فيه أثر الخالق · ولكن هذا أمر يحتاج الى قلب فاهم وعقل واع · والاسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والانسان · فهناك فقط الوحي القرآنى الذى جاءنا عن طريق النبى محمد ﷺ · والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية : **« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم »**(١٣) ·

٢ ــ الانسان خليفة الله فى الأرض :

واذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الاسلام فان هذا يتطلب معرفة موقف الاسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة ، ويقتضى معرفة دور الانسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح أمامنا معالم الصورة التى يرسمها الاسلام لتلك المسئولية الكلية ·

اننا اذا تأملنا كلمة « اسلام » ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ السلام · والاسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم · واذا كان قد شرع الحرب فان ذلك ياتى فقط فى حدود خدمة هذا السلام وترسيخ قواعده · ومن هنا فان الاسلام لم يشرع الحرب الا لصد العدوان ·

فالقتال فى سبيل الله ــ الذى كتبه الله على المؤمنين ــ لا يجوز أن يوجه الا ضد هؤلاء الذين يعتدون على المؤمنين ويعكرون عليهم صفو السلام ولا يجوز للمسلمين ان يبدأوا القتال · وفى ذلك يقول القرآن الكريم

---

(١٣) سورة الحديد آية ٢٨

فى صراحة ووضوح : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »[١٤] .

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو اذا أبدى ميلا الى السلام، وذلك استجابة للأمر الالهى فى قوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لهـا وتوكل على الله انه هو السميع العليم »[١٥] .

والاسلام لا يكتفى بمنع العدوان ولكنه فى الوقت نفسه يطالب بالعمل الجاد لاقامة السلام والعدل ، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر . ومن ليس مع الله فهو فى الجانب المضاد لله . ومن أجل ذلك يقول القران الكريم : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان »[١٦] اى وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

ان الحياة فى هذا العالم سريعة الزوال والشىء الذى يبقى هو العمل الصالح . ويصور لنـا القرآن الكريم امر هذه الحياة أبلغ تصوير فـى قوله تعالى :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا . المـال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

ويقول القرآن فى سورة لقمان : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور »[١٨] .

---

(١٤) سورة البقرة آية ١٩٠

(١٥) سورة الأنفال آية ٦١

(١٦) سورة النساء : ٧٥

(١٧) سورة الكهف : ٤٥

(١٨) سورة لقمان : ٢٢

فاذا أحببنا هذا العالم فينبغى أن نفعل ذلك ونحن على ذكر من أن كل الخيرات والطيبات التى نتمتع بها فى هذا العالم تأتينا من عند الله، كما يشير الى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[١٩]

وفضلا عن ذلك فان الله سبحانه وتعالى قد سخر للانسان كل شىء فى السموات والأرض لعل ذلك يكون داعيا له إلى التفكير فى هذه النعم التى لا تحصى ولا تعد ٠ وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٢٠] ٠

ومن الأمور البدهية فى هذا الصدد أن هذه النعم الالهية التى أنعم الله بها على الانسان ترتبط بمطالبة الانسان ألا يهمل خلق الله المسخر له، بل يجب عليه ان يتحمل مسئوليته فى الاهتمام به والعناية بشأنه ٠ ولهذا فان مسئولية الانسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصب فقط على البشر ، بل تشمل ايضا الحيوان والنبات والأرض كلها ٠ ومسئولية الانسان ازاء هذا العالم وازاء الخلق كله ـ الذى يعتمد عليه الانسان أيضا ـ هذه المسئولية لا ينبغى ان تعرف حدودا تقف عندها ٠ ولذلك يقول الرسول الكريم ﷺ :

« ان قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فان استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل »[٢١] ٠

---

(١٩) سورة الاسراء : ٧٠

(٢٠) سورة الجاثية : ١٣

(٢١) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (. انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢) ٠

ألا يعنى هذا أنه طالمـا نحن عاملون على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالمنا أننا نسلك سلوكا مسئولا على مستوى المسئولية العالمية ؟

ان الاسلام اذ يطلب من المسلم التوجه الى الله والخضوع لأمره فان ذلك لا يعنى على الاطلاق الاعتزال عن هذا العالم أو الانسحاب منه ، بل على العكس من ذلك يقتضى هذا الطلب أن يأخذ الانسان المسلم هذا العالم بوصفه مجالا لأداء مهمته فى هذه الحياة وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية .

فالانسان ـ كما يشير القرآن الكريم[٢٢] ـ خليفة الله فى الأرض . وقد أعطى الله العقل للانسان ليمكنه من أداء المهمة التى أنيطت به فى هذا العالم . والله الذى جعل الانسان خليفة له فى الأرض هو رب هذا الانسان ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الانسان . وهذه الطاعة لله هى التى تحدد مصير الانسان .

والقرآن الكريم يشير الى أن الانسان عندما أضله الشيطان وأغراه وعصى آدم أمر ربه كان مصيره الخروج من الجنة ، واحلال العداوة بين بنى البشر محل السلام والسعادة وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو »[٢٣] .

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للانسان الذى طرد من الجنة فغفر له وبين له طريق الهداية ووعد السائرين فى هذا الطريق باحسن العواقب :

« فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢٤] .

ان المؤمن الحق يقفه بكليته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ولا يحزن

---

(٢٢) سورة البقرة : ٣١

(٢٣) سورة البقرة : ٣٦

(٢٤) سورة البقرة : ٣٨

على الماضى ، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال . والمسئولية العالمية أمر لا ينفصل عن تكوين الانسان وهى التى تميزه تمييزا جوهريا عن بقية المخلوقات الاخرى ، فقد أبت هذه المخلوقات جميعها أن تتحمل أمانة التكليف والمسئولية بكل ما تحمل من معنى . فقد عرض الله سبحانه على جميع المخلوقات هذه الأمانة وتلك المسئولية ـ عرضها على السموات والأرض والجبال : « **فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان** »

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الانسان فى هذا الموقف « انه كان ظلوما جهولا »[25] وقد تعجب الملائكة حين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بارادته التى قضت بجعل الانسان خليفة فى الأرض فقالوا : « **اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** »[26] ، وقد أجابهم الله سبحانه بقوله :

« **انى أعلم ما لا تعلمون** » فقد علم آدم الأسماء كلها [27] ومنحه عقلا يعرف به طبيعة الأشياء .

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة :

نحن جميعا ندرك مدى ما يعانيه الانسان من التمزق أو الانشقاق الداخلى ويرجع السبب فى هذه المعاناة الى أن الانسان من ناحية قد أبى الا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام فى اقامة العدل واقرار الحق والالتزام التام بأمر الله ، ومن ناحية أخرى نجده واقعا تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان

---

(٢٥) سورة الأحزاب آية : ٧٢

(٢٦) سورة البقرة آية : ٣٠

(٢٧) سورة البقرة آية : ٣١

والمكان ، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد . ومن هنا كان الانسان ظلوما لنفسه ، جهولا لطاقته[٢٨] .
فكيف السبيل الى حل هذا الاشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** »[٢٩] .

فالله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الانسان ضغط هذه المعاناة الا اذا اتجه اليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرين بربوبيته وحده سبحانه . ذلك الاقرار الذى هو مغروس أصلا فى فطرتهم . كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى :

« **واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ان تقولوا يوم القيام انا كنا عن هذا غافلين** »[٣٠] .

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين فى جانب والكافرين والمنافقين فى الجانب الآخر . يقول الله تعالى :

« **زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** »[٣١] .

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالا

---

(٢٨) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشروق .
(٢٩) سورة الرعد آية : ١١
(٣٠) سورة الأعراف آية : ١٧٢
(٣١) سورة البقرة آية : ٢١٢

تاما عن بعضهما البعض • فالطريق الى الايمان مفتوح باستمرار أمـــام الجميع لأن الله غفور رحيم • • وطريق الايمان مفتوح لكل الناس لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعا • ويشير القرآن الكريم الى هذه الوحدة فى كثير من الآيات ، ففى سورة النساء مثلا نقرأ قول الله تعالى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »[٣٢] •

ونظرا لأن الله قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة فان المؤمن بطبيعته منفتح بصفة أساسية على العالم وعلى غيره من النـــاس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو ـ ان صح التعبير ـ •

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للانسان يعنى خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة فالجميع أبناء آدم •

ومعرفة الوحدة النهائية لكل البشر تسير جنبا الى جنب مع تحقيق هذه الوحدة فى ترابط ووئام وحب متبادل مع اخواننا فى الانسانية ويتمثل ذلك فى سلوكنا المسئول •

وبمعرفتى للوحدة الأساسية مع كل الناس ـ عن طريق ارتباط نفسى بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعيى الدينى ـ يتحول بذلك سلوكى الى سلوك مسئول ، أى سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها •

والانسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنوا له ، وبالسعى المستمر ـ عن طريق السلوك المسئول ـ الى التسامح والود وفهم الآخرين وفهم معاناتهم ، والصبر الذى لا يكل مع نفسه ومع الآخرين •

والمسئولية الذاتية ـ اذا فهمت فهما سليما ـ تعد دائما مسئولية ذاتية أمام الله وبهذا المعنى تعد ايضا مسئولية عالمية فقد خلق الله الخلائق الكثيرة

---

(٣٢) سورة النساء آية : ١

والشعوب العديدة لكى « يعرف » بعضهم بعضا ٠ وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »[٣٣] ٠

ولو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة لفعل ، ، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ٠ولكن ليبلوكم فيما آتاكم »[٣٤] ، وعلى الرغم من كل الاختلافات الكثيرة بين الناس فانهم فى حقيقة الأمر متساوون وهم جميعا أمام الله سواسية كأسنان المشط ، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى :

« ان اكرمكم عند الله أتقاكم »[٣٥] وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ :

« يا أيها الناس : الا ان ربكم واحد ، وأباكم واحد ، الا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على احمر الا بالتقوى »[٣٦] ٠

والاسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الانسانية وأن نخرجها من حيز الامكان الى حيز الوجود الفعلى ، وأن نتوصل الى السلام ، بالأخوة فى العقيدة ٠

---

(٣٣) سورة الحجرات آية : ١٣

(٣٤) سورة المائدة آية ٤٨

(٣٥) سورة الحجرات آية : ١٣

(٣٦) انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٤١١ (المكتب الاسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت) انظر ايضا سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٨٩ ـ طبعة أسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤

ومسئوليتنا التعبدية فى الاسلام ـ المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة كما تشير الى ذلك الآية الكريمة : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »[٣٧] ـ هذه المسئولية التعبدية تعد أيضا مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات ، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء لله فى الأرض مثلنا ، وهم بذلك اخوة لنا .

(ب) حرية الانسان ومصيره :

يشير القرآن الكريم الى اننا لا نستطيع ان نجبر احدا من الناس على الايمان بالله ، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يترك ذلك لارادتهم الحرة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ـ افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟** »[٣٨] .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم : « **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** »[٣٩] . ولكن حرية الانسان ليست حرية مطلقة . فالانسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لارادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران . اما كون حرية الانسان ليست بالحرية المطلقة فان ذلك يرجع الى انها محددة عن طريق ارادة الله ، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها ، فارادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة .

حقا يقول القرآن الكريم : « **كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون الا أن يشاء الله** »[٤٠] . ولكن هناك بعض الاشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك فهو سبحانه كما تقول تكملة الآية السابقة « **أهل التقوى وأهل المغفرة** » . فالله يطلب منا أن نخشاه ونتقيه وأن نمتثل

---

(٣٧) سورة الذاريات آية : ٥٦

(٣٨) سورة يونس آية : ٩٩

(٣٩) سورة الكهف آية : ٢٩

(٤٠) سورة المدثر آية : ٥٤ ـ ٥٦

لارادته ، ولكنه فى الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعا ما عدا الشرك : « **ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** »(٤١) .

ومن ذلك يتضح لنا أن الله سيتجه بغفرانه وعفوه الى كل من يتجه اليه ويلجأ اليه : « **ادعونى استجب لكم** »(٤٢) ، « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان** »(٤٣) ، اما من يتجه بكليته الى هذا العالم المادى ويسلم قياده اليه ويعرض عن التوجه الى الله فانه بعمله هذا يكون قد حدد مصيره بنفسه .

« **ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك اتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** »(٤٤)

واذا كان هذا هو مصير من اتجه الى غير الله فان للمؤمن مصيرا مختلفا ، لأنه يدرك بنور ايمانه وبصيرته ما لا يدركه الجاحد . فالمؤمن يدرك أن اصله الحقيقى لا يكمن فى تجميع تصادفى او عشوائى لأية خلايا ، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها فضلا عن ان تقوم بمثل هذا العمل التجميعى . والله وحده هو الذى خلقنا وخلق كل شىء وقدره تقديرا ، وهو الذى يحفظ حياة كل شىء ، انه سبحانه ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض ، والتى يتجه اليها الانسان عندما تحيط به النوائب ، ومن اجل ذلك فلابد ان يكون مسئولا امامها عن كل اعماله .

ويدرك المؤمن كذلك ان عالم المادة ـ الذى يمكن ارجاعه ايضا

---

(٤١) سورة النساء الآية : ٤٨ ، ١١٦
(٤٢) سورة غافر الآية : ٦٠
(٤٣) سورة البقرة الآية : ١٨٦
(٤٤) سورة طه الآية : ١٢٤ ـ ١٢٦

الى الطاقة طبقا لأحدث النتائج التى توصل اليها علماء الطبيعة ـ لا يشكل الواقع الحقيقى ٠ ومن أجل ذلك يدرك المؤمن ايضا أن الصراع من أجل أشياء هذا العالم المادى ـ هذا الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضا ويجعلهم متعادين ـ يعد صراعا انتحاريا ٠ فنحن ندمر انفسنا اذا اخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير ٠

وبدلا من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ونبيع له انفسنا لنصبح مستعبدين لأشيائه ينبغى علينا ـ على العكس من ذلك ـ أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »(٤٥) .

وهكذا نرى أن الجهاد فى سبيل الله هو فقط لهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ٠ فهناك اذن طريقان فحسب أمام الانسان : طريق الخير وطريق الشر ٠ فاذا لم نجاهد فى سبيل الله فنحن نجاهد فى سبيل الشر ٠ وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى وضوح تام فى قول الله تعالى :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت »(٤٦) .

ولكن اذا قلنا ان هذا العالم لا ينطوى على شىء يمكن اعتباره هدفا نهائيا فليس معنى ذلك أن الاسلام يحتقر هذا العالم ٠ فالأمر على العكس من ذلك تماما ٠ فهذا العالم الذى خلقه الله وانعم به علينا هو مجال التزاماتنا وهو مسئوليتنا ، فطريقنا الى الله يمر عبر هذا العالم ٠

أما الصياغة الاسلامية للمسئولية الذاتية وللمصير الذاتى للانسان فتعبر عنها الآية الكريمة : **« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك »**(٤٧)

---

(٤٥) سورة النساء الآية : ٧٤

(٤٦) سورة النساء الآية : ٧٦

(٤٧) سورة النساء الآية : ٨٤

فالانسان مطلوب منه أن يجاهد فى سبيل الله ، وهو فى ذلك لايتحمل الا مسئولية عمله . ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للانسان اعتبار الآخر صنوا لنا نحب له ما نحب لأنفسنا ونكره له ما نكرهه لأنفسنا طالما كان هذا الآخر مشاركا لنا فى الجهاد فى سبيل الله ومن اجل خير هذا العالم . ولهذا يقول النبى ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٤٨] .

(جـ) الايمان والمسئولية :

ان المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل الى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ عليها باستمرار ينبغى عليه ان يفعل الشىء ذاته بالنسبة لاخوانه فى العقيدة . ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم وتنوير طريقهم . والاسلام من اجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء ، فقد ورد فى حديث شريف : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء »[٤٩] .

وهذا الموقف الذى يتخذه الاسلام ازاء العمل العلمى لا يفهم الا اذا ادرك المرء أن العلم فى الاسلام يجب أن يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا باستمرار بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته .

والملاحظ فى عالم اليوم الذى وصل فيه التقدم العلمى الى درجة مذهلة ــ أن غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا ،

---

(٤٨) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٦٧ (انظر الكتب البحثة مجلد ٤ طبعة اسطنبول) .

(٤٩) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧ ــ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (١٩٦٨) . وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد ٦ ص ٤٦٦ ــ دار المعرفة ــ بيروت ١٩٧٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى التقدم بصفة عامة يؤدى الى اخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار ٠

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين ــ سواء كانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة او فى الرياضيات أو فى الطب او فى اى مجال آخر من مجالات العلوم ــ يرى المرء انهم كانوا دائما حريصين على التوقف عن اعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بادائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم ، فالعلم ينبغى ان يكون مرتبطا على الدوام بالأخلاق ٠ والعقيدة والأخلاق متلازمان لا انفصام بينهما ويشكلان وجهان لعملة واحدة ٠ وقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٥٠] ٠

ومن هذا المنطلق يعد الموقف اللا اخلاقى أو الالحادى لبعض العلماء فى العصر الحديث والذى انتج عالما يسوده الرعب والفزع ــ يعد موقفا مرفوضا من العالم المسلم ٠ والمطلوب من العالم المسلم ــ على عكس الموقف المشار اليه ــ هو ان يوجه جهوده العلمية نحو السعى فى نشر السلام فى العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية ، ويتحقق ذلك بالجهاد فى سبيل الله ضد نفسه وضد الظلم ، وبعبارة اخرى يتحقق ذلك بالجهادين الأصغر والأكبر ٠

ومن ذلك يتضح لنا ان الاسلام لا يعنى رفضا لهذا العالم او تخليا عنه ٠ فالاتجاه المطلق الى الله والتسبيح المستمر والتقديس الدائم من الأمور التى تختص بها الملائكة ٠ اما الانسان فانه مطلوب منه ان يسلم نفسه لله ، ومن ناحية اخرى مطلوب منه ايضا أن يمارس وظيفته فى هذا العالم بوصفه خليفة الله فى الأرض ٠ ومن اجل ذلك أصبح متفوقا على الملائكة الذين طلب الله منهم لذلك ان يسجدوا لآدم[٥١] ٠

---

(٥٠) رواه البخارى فى كتاب الادب المفرد ٠

(٥١) انظر سورة البقرة الآية ٣٤ ٠

والناس جميعا ـ بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته ـ يعدون اخوة بصفة اساسية ، غير ان المنافقين والكافرين قد عزلوا انفسهم بانفسهم من هـذه الأخوة . فقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، اى لكى يحاول كل منهم أن يفهم الآخر ويحترمه ، والفرق الوحيد الذى له اعتباره فى هـذا الصدد يتمثل فى درجة التقوى . فافضل الناس لدى الله هو اكثرهم عدلا واكثرهم صلاحا ، اى اتقاهم[٥٢] .

والايمان الشكلى لا يدخل صاحبه فى عداد المؤمنين الحقيقيين . ومن هنا يقول القرآن الكريم فى شأن هؤلاء الشكليين : « **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** »[٥٣] .

فعلامات الايمان الحق هى تلك التى وردت فى سورة البقرة فى قوله تعالى : « **آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير** »[٥٤] .

واعمال الانسان لا تذهب سدى ، فالله سبحانه يعلم كل شىء . وكل اعمال الانسان مسجلة له أو عليه ، ونتيجة هـذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر ان خيرا فخير وان شرا فشر : « **من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها** »[٥٥] .

والسؤال الملح فى هـذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر ، وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه اليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة اشد الاختلاف .

---

(٥٢) انظر سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٥٣) سورة الحجرات الآية ١٤ .

(٥٤) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٥٥) سورة الجاثية آية ١٥ (انظر أيضا سورة الاسراء الآيات ١٣ ـ ١٥ وسورة فصلت آية ٤٦) .

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ويوجههم الى سبيل الهدى والرشاد ، فهو رحمة وشفاء ٠ كما جاء فى قوله تعالى :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »(٥٦) ٠

وقد سبق ان اشرنا الى ان معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى ٠ وتتمثل هذه التقوى فى أن يتجه المؤمن الى عبادة الله الذى خلقه ، وأن يرجو غفرانه ورحمته ، وأن يتجه اليه بالتوبة ، وأن يدعوه ويلجأ اليه فى كل وقت فالله دائما على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه ٠

وفى هــذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب »(٥٧) ٠

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكرا مستمرا لله فذلك هو طريق الفلاح : **« واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »**(٥٨) ٠

ومن هنا يعطى الاســلام للممارسة العملية للعقيدة فى حياة النــاس ومعاملاتهم اليومية نفس الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الاسلام وهى الشهادة واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام ٠

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »(٥٩)

---

(٥٦) سورة الاسراء آية ٨٢ ٠

(٥٧) سورة هود الآية ٦١ ٠

(٥٨) سورة الجمعة الآية ١٠ ٠

(٥٩) سورة الأنعام الآية ١٦٢ ٠

وهكذا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الاسلام على المعنى الضيق الذى يعنى اداء الشعائر الدينية المعروفة . فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية ـ دينيا كان هـذا العمل ام دنيويا ـ يعد عبادة طالمـا قصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى باصلاح الأرض ومنع الفساد .

ومن هـذا المنطلق نجد الاسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة ، تقديرا من الاسلام لقيمة العمل الذى لا تقوى الحياة الا به .

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

« فاذا قضيت الصـلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـل الله »[٦٠] .

وقد روى أن النبى ﷺ راى رجلا يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هـذا عابدنا . فقال عليه السلام : ومن يؤكله ؟ قالوا : كلنا يؤكله ، فقال عليه السلام : « كلكم خير منه »[٦١] .

(د) دوائر المسـئولية :

ومن خلال موقف التقوى هذا يتجه المؤمن الى هذاالعالم ، ويحاول كل فرد فى موقعه بوصفه خليفة الله فى الأرض ـ ان يسلك سلوكا مسئولا معتمدا فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الالهية الرحيمة .

وما يمكن ان يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية او المحور الذى تدور عليه المسئولية يتمثل فى المسئولية الذاتية .

---

(٦٠) سورة الجمة الآية ١٠ .

(٦١) راجع : معالم الثقافة الاسلامية للدكتور/عبد الكريم العثمان ص ١٤٩ مؤسسة الرسالة ١٩٧٢ .

ولكن الاسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقته • وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٦٢)

وفى حديث شريف يتحدث النبى ﷺ عن مسئوليتنا عن كل ما نملكه ماديا وادبيا • فقد روى الترمذى أن النبى ﷺ قال :

« لا نزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم افناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم انفقه ، وماذا عمل فيما علم »(٦٣) •

والانسان لا يستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة الا اذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة • والتزامات الانسان تجاه المجتمع الانسانى ليست التزامات مفروضة عليه من الخارج وانما هى التزامات مرتبطة اشد الارتباط بوجوده الانسانى •

وكل انسان سليم العقل يشعر بانه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فانه لا يجوز له ان ينتظر من الآخرين ان يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية • فلو لم اعدل فى حق الآخرين فانه لا يجوز لى ان انتظر منهم ان يعدلوا فى حقى • والانسان الذى يتنكر لالتزاماته الخلقية تجاه الآخرين هو انسان يعزل نفسه عن المشاركة الانسانية • ونظرا الى أن الانسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج الى المجتمع الانسانى فان هذه الحالة بالنسبة له تعد امرا مميتا • ولهذا يبدو أمرا غريبا وموقفا متناقضا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها(٦٤) •

---

(٦٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ •

(٦٣) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١٤) •

(٦٤) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٤٠ •

وهكذا لا يجوز بأى حال من الأحوال ان يتجاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخرين وما لهم عليه من التزامات . وفى بعض المواقف يتوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيره حتى يكون عادلا أمام الله . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين »[(٦٥)] .

وقد تحدث النبى ﷺ عن دوائر المسئولية فقال :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى اهله وهو مسئول عن رعيته ، والمراة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته »[(٦٦)] .

والقرآن الكريم يربط ربطا واضحا لا لبس فيه ولا غموض بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فى قوله تعالى :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكانما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا »[(٦٧)] .

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى انسان مع قيمة البشرية كلها ، لأن الانسان من حيث هو انسان بالنسبة للمؤمن يعد خليفة لله . فالله قد نفخ من روحه كما يقول القرآن الكريم :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[(٦٨)] .

---

(٦٥) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٦٦) صحيح البخارى جـ ١ ص ٢١٥ (الكتب الستة طبعة أسطنبول مجلد ١) .

(٦٧) سورة المائدة الآية ٣٢ .

(٦٨) سورة الحجر الآية ٢٩ .

واذا لم أعرف ذاتى فى نفسى على حقيقتها ـ والتى لا نتمثل بأى حال من الأحوال فى الجانب المـادى ـ فاننى لن أستطيع ان اعرف الذات فى الآخرين ، بل سيكونون بالنسبة لى وجودا ماديا . وفى ظل هـذه الظروف يكون المرء فى صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعدا لازاحتهم من طريقه بتدمير حياتهم .

أما اذا سلك المرء سلوكا مسئولا مسئولية ذاتية فانه سيسلك فى الوقت ذاته سـلوكا مسئولا مسئولية عالميـة . فكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما مكمل للآخر .

ومن ذلك يتضح ان موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السـلبية . فليس يكفى أن يعمل الانسان الخير أو ان يمتنع عن فعل الشر ، بل يجب أن يكون له موقف ايجابى تجاه الظلم . فلا يجوز لنا ان نسكت عندما نرى الظلم يقع على انسان او حيوان او نبات او جماد ، بل يجب علينا ان نساعد المضطهدين والمظلومين ـ وما أكثرهم فى عالم اليوم ـ وذلك بقدر ما نستطيع وان نحاول انقاذ من وقعوا فى محنة أو من حلت بهم كارثة . ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان »[٦٩] .

ويقول ايضا : « انصر اخاك ظالمـا او مظلوما ، قيل : كيف أنصره ظالمـا ؟ قال : تحجزه عن الظلم ، فان ذلك نصره »[٧٠] .

---

(٦٩) رواه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ أسطنبول مجلد ٤) .

(٧٠) رواه البخـارى والترمذى واحمـد (انظر فيض القـدير ج ٣ ص ٥٨ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢) .

والمطلوب منا اذا أردنا الا نكون من الخاسرين هو أن نتحلى بالايمان والسلوك القويم وان نتواصى جميعا بالحق والصبر ٠ وفى ذلك جاءت سورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا : « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ٠

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ اذا التقيا لم يفترقا الا أن يقرأ احدهما على الآخر سورة العصر الى آخرها ثم يسلم احدهما على الآخر ٠ وقد ورد عن الامام الشافعى قوله : لو تدبر الناس هذه السورة لو سعتهم[٧١] ٠

فما هو هذا الحق وما هو هذا الصبر ؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيح المقصود من ذلك فى مواضع كثيرة نكتفى منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثال لما نود الاشارة اليه ٠

فقد جاء فى سورة الكهف بصدد الحق قوله تعالى :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٧٢] ٠

وجاء فى سورة النحل بصدد الصبر قوله تعالى :

« واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[٧٣] ٠

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه اذا نظرنا الى الناس جميعا فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر ٠ فمصيرهم مشترك ٠

---

(٧١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٥٤٧ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ ٠

(٧٢) سورة الكهف الآية ٢٩ ٠

(٧٣) سورة النحل الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

ومن اجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا اى خلل يمكن أن يتسبب فى اعصاب السفينة واغراقها . وقد صور النبى ﷺ مثل هذه الحالة تصويرا رائعا حين قال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم اسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من المـاء مروا على من فوقهم فقالوا : لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان يتركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا وان اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[74] .

* * *

---

(٧٤) صحيح البخارى ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ اسطنبول مجلد ٤) .



الباب الثانى

دراسات فى

الفكر الإسلامى الفلسفى

١ ـ دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى ٠

٢ ـ حول مفهوم التصوف الاسلامى ٠

٣ ـ حول مفهوم القيم ٠



الفصـــل الأول

دور الاســـــلام
فى تطــور الفكر الفلســفى

اولا ـ موقف الاســلام من العقل :

١ ـ تمهيـــــــد

٢ ـ الانسان فى نظر الاسلام

٣ ـ العقــل ووظيفته

٤ ـ تمهيد الطريق امام العقل

ثانيا ـ دور الاســلام فى تطور الفكر الفلســـفى :

١ ـ الجانب الفكرى :

ا ـ نظرة عامة
ب ـ مبدا الاجهتاد
ج ـ فكرة التوفيق او الوسطية
د ـ نظرة الاسلام الى التاريخ

٢ ـ الجانب التاريخى :

ا ـ التاثير الاســــلامى فى فلسفة العصور الوسطى
ب ـ التاثير الاســــلامى فى فلسفة العصر الــحديث

كلمــة ختامية ٠



الحديث عن دور الاسلام فى تطور الفكر لا بد من التمهيد له بعرض موقف الاسلام من العقل ، اذ أن هـذا الموقف هو الذى يستطيع أن يتيح لنا التعرف على مدى امكانية اسهام الاسلام فى تطور الفكر بصفة عامة والفكر الفلسفى بصفة خاصـة . وعلى هـذا سينقسم بحثنا الى قسمين أولهما عن موقف الاسلام من العقل وثانيهما عن دور الاسلام فى تطور الفكر(*) .

اولا ـ موقف الاسلام من العقل :

١ ـ تمهيـــد :

لم يكن للعرب قبل الاسلام ما يمكن ان يطلق عليه المرء فكرا فلسفيا ، فقد كانت لهم نظرات فلسـفية متناثرة فيما خلفوه لنا من نثر وشـعر ، ولكنها كانت من فلتات الطبع وخطرات الفكر كما يقول الشهرستانى[(١)] (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ) فلم يكن لديهم اهتمام بالتعليل أو محاربة التقليد والخرافات أو البحث عن العلاقة بين المقدمات والنتائج فيما كان منتشرا لديهم من آراء وأقاصيص ، « لقد كانت لديهم معارف فلكية وطبيعية متصلة

(*) قدم هـذا البحث الى ندوة الحضارة الاسلامية فى بروكسل التى عقدت فى الفترة من ٨ الى ١٠ نوفمبر ١٩٨٢ .

(١) الملل والنحل جـ ٢ ص ٦٠ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ . راجع أيضا طبقات الأمم للقاضى ابى القاسم (صاعد بن أحمد) الذى يقول فى معرض كلامه عن علم العرب فى الجاهلية (ص ٤٥ طبعة بيروت) : « وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به » . انظر المزيد من التفصيل عن ذلك فى : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٣١ وما بعدها (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦) .

بمعارف الكلدانيين والصــابئة ، ومعارف طبيــة تجريبية مصــحوبة بالرقى والعزائم والتمائم ، واســاطير زاخرة بأخبار الجن والسعالى والغيلان والشــياطين ، وأمثال وحكم تدل على منازعهم العقلية ، وشعر فى الزهد تغلب عليــه العناصر الخلقيــة والروحية ، ولكن ذلك كله لا يؤلف مذاهب فلسفية كاملة ، لأن التفكير الفلســفى لم يبدأ عنـــدهم الا بعد ظهور الاسلام »[٢] .

فقد بعث الاســلام فيهم حياة جديدة . ونقلهم الى افق فســـيح من العلم والمعرفة فأقاموا صرح دولة عظمى تمتــد من أقصى الصــين شرقا الى أقصى الأندلس غربا ، وانشــأوا حضــارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمرا فى التاريخ ، وفى هذا الجو ازدهرت العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها ، وأسهم المسلمون فى الجهــود الفلسفية وأصبحت لهم فلسفة تحمل طابعهم وتميزهم عن غيرهم ، ولم يكن ذلك كله يمكن أن يحدث الا اذا كانت تعاليم الاســلام تشتمل على العناصر الأساسية لهذا التحــول العظيم .

٢ ـ الانسان فى نظر الاسلام :

لقد كان حجر الأساس فى هذا البناء الجديد يتمثل فى نظرة الاســلام الى الانســان . فالاســلام ينظر الى الانســان على أنه خليفة الله فى الأرض مصداقا لقوله تعالى : « انى جاعل فى الأرض خليفة » ـ البقرة ٣٠ ـ وقد فضله الله على جميع الكائنات وكرمه أعظم تكريم كما تعبر عن ذلك آيات القرآن مثل قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنــا تفضيلا » ـ الاسراء ٧٠ ـ وهذه الكرامة التى اختص الله

---

(٢) تاريخ الفلسفة العربية للدكتور جميل صليبا ص ١٥ / ١٦ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣ راجع أيضــا : دروس فى تاريخ الفلســفة العربية الاسلامية لعبده الشمالى ص ٤ / ٥ بيروت ١٩٥٦

بها الانســان ذات أبعاد مختلفة • فهى حماية الهية للانســان تنطوى على احترام حريته وعقله وفكره وارادته ، وتنطوى ايضــا على حقــه فى الأمن على نفســه وماله وذريته[٣] وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقية وهى تلك الحرية الواعيــة المسؤولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية التى اشــار اليها القرآن فى قوله : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانســان »[٤] •

واذا كان الله قد اختص الانسان بالتكليف والمسؤولية فانه من ناحية اخرى قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء • ويشير القرآن الى ذلك فى آيات عديدة منها قولــه تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٥] •

والتفكر الذى تنص عليه الآية هنــا امر جوهرى لا ينبغى ان يغيب عن الأذهان ، فانه اذا كان الله قد ســخر للانســان هذا الكون فلا يجــوز له ان يقف منــه موقف اللامبالاة بل ينبغى عليــه أن يتخذ لنفســه منــه موقفا ايجابيــا • وايجابيتــه تتمثل فى درســه والنظر فيــه للاستفادة منــه بما يعود على البشرية بالخير • والاســتفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون الا بالعلم والدراســة والفهم • والنظر فى ملكوت الســموات والأرض على هذا النحو ســيؤدى الى الرقى المــادى ، وفى الوقت نفسه الى الرقى الروحى[٦] يقول القرآن « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[٧] •

---

(٣) راجع أيضا دراســات اسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٣ وما بعدها • دار القلم بالكويت ١٩٨٠

(٤) الأحزاب ٧٢ (٥) الجاثية ١٣

(٦) راجع مقالنا (سبيلنا الأوحد للحضارة الحقيقية) المنشــور بمجلة (المســلمون) الدولية بلندن • العدد ٢٢ (٢٦ مارس ١٩٨٢ — ١ جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ) •

(٧) فصلت ٥٣

٣ ـ العقل ووظيفته :

ولم يبلغ الانسان كل هـذا التكريم الذى سـما به فوق كل الكائنات الا بالعقل الذى اختصـه الله به وميزه على سـائر المخلوقات ، وقد نوه الاسـلام بالعقل والتعويل عليـه فى امور العقيـدة والمسؤولية والتكليف ، ولا تأتى الاشـارة الى العقل فى القرآن الكريم الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجـوب العمل به والرجوع اليـه وذلك ما يؤخذ من كل الآيات القرآنية التى وردت الاشـارة فيها الى العقل(٨) . ولم يكن من قبيـل المصـادفة أن تكون الاشـارة الى العقل فى القرآن فى صيغ عديدة ، فتارة بلفظ القلب او الفؤاد ، وتارة ثانية فى صيغة افعال بلفظ المفرد او بلفظ الجمع مثل : يعقلون ـ يفقهون ـ يتفكرون ـ ينظرون ـ يبصرون ـ يعتبرون ـ يتدبرون ـ يعلمون ـ يتذكرون ـ وتارة ثالثة فى صيغة اولى الألباب أو أولى الابصار او اولى النهى . فقـد اراد القرآن ان يعبر بذلك عن

---

(٨) العقل من حيث مدلوله اللفظى العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عما هو محظور ومنكور . ومن هنا كان اشتقاقه من مادة عقل التى يؤخـذ منها العقال . وفى ذلك يقول الجاحظ : « وانما سـمى العقل عقلا لأنه يزم اللسـان ويخطمه عن أن يمضى فرطا فى سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير » وللعقل خصائص عديدة : منها انه ملكة الادراك التى يناط بها الفهم والتصور وادراك الأمور ، ومنها انه ملكة الحكم فهو يتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه ويحكم عليه . ويتصل بملكه الحكم ملكة الحكمة ايضـا ، وذلك اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسـن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبـه وما ينبغى له ان يأباه ، ومن خصائص العقل ايضـا الرشد وهو تمام النضج : فالعقل الرشيد ينجو به الرشـاد من الوقوع فى مهاوى النقص والاختلال .

راجع : التفكير فريضـة اسـلامية للأسـتاذ عباس العقاد ص ٨ وما بعدها ، دار الكتاب العربى ـ بيروت ١٩٦٩ ، وتجديد الفكر العربى للدكتور زكى نجيب محمود ص ٣١٠ ، دار الشروق بيروت ١٩٧١

الوظائف العقلية التى أراد الله للعقل الانسانى أن يمارسها فى هذا الوجود[9] .

والاسلام عندما يخاطب العقل فانه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه .. فهو يخاطب العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبير والروية[10] .

وقد وعى رجال الفكر الاسلامى القيمة الكبرى التى يسبغها الاسلام على العقل فقال عنه حجة الاسلام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ان العقل « أنموذج من نور الله »[11] وقال عنه الجاحظ (توفى عام ٢٥٥ هـ) انه وكيل الله عند الانسان[12] .

واذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فان محاولة تعطيله عن اداء هذه الوظيفة يعد تعطيلا للحكمة التى ارادها الله من خلق العقل ، مثلما يعطل الانسان حاسة من الحواس التى انعم الله بها عليه عن اداء وظيفتها التى خلقت من اجلها . وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم احط درجة من الحيوان حيث يقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل »[13] ومن هذا المنطلق يعتبر الاسلام عدم استخدام

---

(٩) وردت مادة عقل وما اشتق منها فى القرآن تسعة واربعين مرة ، ووردت مادة فقه وما اشتق منها عشرين مرة ، ومادة فكر وما اشتق منها ثمانى عشرة مرة ، وورد تعبير اولى الألباب ست عشرة مرة . وهذا بالاضافة الى عشرات المرات التى وردت فيها بقية الألفاظ التى تعبر عن وظائف العقل المختلفة .

(١٠) التفكير فريضة اسلامية ص ٢٠

(١١) مشكاة الأنوار للامام الغزالى ص ٤٤ . القاهرة ١٩٦٤

(١٢) نقلا عن : تجديد الفكر العربى ص ٣١٠

(١٣) الأعراف ١٧٩

العقل خطيئة من الخطايا • يقول القرآن حكاية عن الكفار يوم القيامة **« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم »**(١٤) •

ولهذا كانت دعوة القرآن للانسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل • وهكذا يجعل الاسلام التفكير واجبا مقررا وفريضة اسلامية • ومن هنا قرر ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) ان الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وذلك اخذا من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن(١٥) •

واذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبا دينيا فى الاسلام فانها من ناحية أخرى مسؤولية حتمية لا يستطيع الانسان الفكاك منها ، وسيحاسب على مدى حسن او اساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الادراك الحسية • وفى ذلك يقول القرآن **« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »**(١٦) •

٤ ـ تمهيد الطريق أمام العقل :

ومن منطلق حرص الاسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله كان حرص الاسلام شديدا على ازالة كافة العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته •

ولهذا طالب الاسلام بتحطيم هذه العوائق ليشق العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم ويتجلى لنا ذلك واضحا من النقاط التاليـة :

---

(١٤) الملك ١٠

(١٥) فصل المقال لابن رشد ص ١٠ (مطبوع مع الكشف عن مناهج الأدلة تحت عنوان فلسفة ابن رشد ـ المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر ١٩٦٨) •

(١٦) الاسراء ٣٦

أ ـ رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى . فالاسلام عندما أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون نهانا فى الوقت نفسه عن التقليد الذى فيه تعطيل للعقل عن اداء دوره فى الوجود . فالتقليد ضلال يعذر فيه الحيوان ، ولا يصح بحال من الأحوال من الانسان القادر على التفكير والتمييز . ولهذا عاب القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم وأسلافهم مستنكرا مثل هذا التقليد . وفى ذلك يحكى عنهم قولهم (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) ويتساءل فى استنكار : « **أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** »[17] وقد حذر النبى ﷺ أيضا من **التقليد الأعمى قائلا :** (لا تكونوا امعة)[18] بمعنى لا تكونوا مقلدين للآخرين تقليدا أعمى .

ب ـ القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرافات والأوهام وابطال الكهانة ، فلا كهانة فى الاسلام وليس هناك مخلوق يتحكم باسم الدين فى رقاب العباد ، فلا ضر ولا نفع الا بارادة الله الذى يقول لنا فى القرآن انه اقرب الينا من حبل الوريد . وانه قريب يجيب دعوة من يدعوه . والرسول ﷺ يقول « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله »[19] . وعقائد الاسلام واضحة ليس فيها ما يتعارض مع مقررات العقل السليم . وقد وقف الرسول بحزم فى وجه الخرافات والأوهام . وعندما مات ابنه ابراهيم تصادف ان كسفت الشمس فى ذلك اليوم فقال البعض ان كسوف الشمس هو مشاركة فى الحزن على موت ابراهيم . وقد واجه النبى ذلك بحسم قاطع قائلا : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد »[20] .

---

(١٧) المائدة ١٠٤

(١٨) رواه الترمذى ونصه : (لا تكونوا امعة : تقولون ان أحسن الناس احسنا ، وان ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ان احسن الناس ان تحسنوا وان اساءوا فلا تظلموا) .

(١٩) رواه الترمذى والامام أحمد .

(٢٠) رواه البخارى ومسلم .

ج ـ تركيز الاسـلام على المسؤولية الفردية • فكل فرد مسـؤول عن أعماله مسـؤولية تامة ، وليس هناك خطيئة موروثة ، وآيات القرآن فى هـذا الشـأن واضحة صريحة • وهذه المسـؤولية الفردية لا تقوم الا على أسـاس حرية الفرد واطمئنانه الى حقوقه فى الأمن على نفسـه وعقله وماله • وقد جعل الاسـلام الأمن على العقل من بين المقاصـد الضرورية الأسـاسية التى قصـدت اليها الشريعة الاسـلامية لقيام مصالح الدين والدنيا • وهذه المقاصـد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسـل والمـال[٢١] •

د ـ حرر الاسـلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهين من السلطة الدنيوية ورفعه الى مقام العزة التى يقول القرآن فيها « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** »[٢٢] • ويقول الرسول أيضا (اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس)[٢٣] كما قرر الاسـلام ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وان المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم •

وهكذا كفل الاسـلام للانسان المناخ الحقيقى الذى يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم • وبهذا أطلق الاسـلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده وخلصه من كل تقليـد كان يستعبده ، وبهذا تم للانسـان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالمـا حرم منهما وهما اسـتقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر[٢٤] • وقد كان لهذا الموقف الأساسى للاسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة الحضارة الاسلامية والعقلية الاسلامية •

---

(٢١) انظر الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ١٠ • دار المعرفة ـ بيروت •

(٢٢) المنافقون ٨

(٢٣) رواه تمام فى فوائده وابن عساكر فى تاريخه • والحديث معناه صحيح وان تكلم علماء الحديث فى سنده •

(٢٤) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٣٣ (دار احياء العلوم بيروت ١٩٧٩) •

وبعد هذا التمهيد الضرورى عن موقف الاسلام من العقل يحق لنا الآن أن ننتقل إلى الحديث عن دور الاسلام فى تطور الفكر بصفة عامة والفكر الفلسفى بصفة خاصة ٠

* * *

ثانيا ـ دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى :

وهذا الموضوع نريد ان نتناوله من ناحيتين : أولهما تتمثل فى الاشارة الى بعض الأفكار الهامة التى اشتملت عليها تعاليم الاسلام وكان لها اثرها ولا يزال فى تطور الفكر ، وثانيهما تتمثل فى الاشارة الى انتقال الفكر الاسلامى الى أوروبا ومدى ما قام به هذا الفكر من تنشيط ودعم للنهضة الفكرية والحضارية فى الغرب ٠

(ا) نظرة عامة :

١ ـ الجانب الفكرى :

لقد اتضح لنا مما تقدم ان الاسلام قد قام بتوفير جميع الشروط الضرورية لقيام حركة فكرية فى اوساط المسلمين ٠ وقد قامت هذه الحركة الفكرية بالفعل ، وازدهرت فى كل بلاد المسلمين وانتشرت بينهم كل الوان الثقافات ، وتفاعل الفكر الاسلامى مع هذه الثقافات المختلفة ٠ ولم يرفض المسلمون ثقافة من الثقافات لمجرد الرفض ، وانما ساروا فى ذلك على مبدأ قرآنى يقول : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ٠ (الرعد ١٧) ٠ وهذا يعنى قبول كل ما هو ايجابى نافع ورفض كل ما هو سلبى لا خير فيه ٠ وقد كانت كلمات الرسول عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[(٢٥)]

---

(٢٥) رواه ابن ماجة بلفظ (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ومن الواضح ان لفظ المسلم هنا يعنى الفرد المسلم رجلا كان أو امرأة ٠

وقوله « الحكمة ضالة المؤمن »[٢٦] أى هى ذلك الشىء الذى ينشده المؤمن فاذا وجدها فى اى مكان اخذها ـ كانت هذه الكلمات نبراسا يضىء للعقول طريقها نحو العلم والمعرفة بلا حدود · وقد رفع القرآن من شان العلم والعلماء فى آيات صريحة واشادت اول كلمات نزلت من السماء على محمد ﷺ بالعلم ، واعتبر القرآن العلماء أخشى الناس لله لأنهم الذين يدركون أسرار الله فى خلقه ويعون روعة الكون وجمال الخلق وجلال الخالق · وجعل الاسلام مداد العلماء كدماء الشهداء ·

ولم تكن الأسس التى وضعها الاسلام لتطوير الفكر والنهوض به مجرد أسس نظرية وانما كانت خطوات عملية اثمرت ثمارها فى المجتمع الاسلامى · فكانت دولة الاسلام ارحب الدول صدرا وأسمحها فكرا مع الفلسفة والفلاسفة ، ومن اصيب من الفلاسفة المسلمين يوما بمكروه فانما كان ذلك من كيد السياسة ، ولم يكن من حرج بالفلسفة أو حجر على الأفكار · فالاسلام بتعاليمه يستطيع ان يواجه أية ثقافة فكرية انسانية دون أن يخشى عليه طالما وجد من المنتسبين اليه من يستطيع فهمه فى أصوله وغايته[٢٧] ولم يحدث ان وقف الدين الاسلامى عقبة فى سبيل البحث فى العلوم الطبيعية على النحو الذى شهدته اوروبا فى العصور الوسطى ، بل كان الاسلام دائما وراء كل انجاز حققه العلماء المسلمون فى هذا المجال ·

وبالاضافة الى ما تقدم نجد فى القرآن شواهد لا حصر لها يتجلى لنا منها اطلاق القرآن للطاقات الفكرية اطلاقا لا حد له · ومن بين هذه الشواهد ما يلى(٢٨) :

---

(٢٦) رواه الترمذى وابن ماجة ·

(٢٧) راجع : التفكير فريضة اسلامية ص ٥٩ / ٦٠ والفكر الاسلامى فى تطوره للدكتور محمد البهى ص ١٠ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨١ م ·

(٢٨) انظر : تأملات فى الفكر الاسلامى للدكتور محمد كمال جعفر ص ٨٧ وما بعدها ـ مكتبة دار العلوم بالقاهرة ١٩٨٠ م ·

أولا : يعرض القرآن بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على المنطق السليم وقوانين الفطرة السليمة • فقد ذكر وجهات نظر الوثنيين والدهريين والماديين والكفار والمنافقين ، وعقب عليها تعقيبا مقنعا مستخدما فى ذلك انصع البراهين واقوى الأدلة • فالكفار مثلا حين ينكرون البعث بعد الموت ويقولون : (ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) يعقب القرآن على ذلك بقوله : (وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) ـ الجاثية ٢٤ ـ وهنا يفرق القرآن بين الظن والعلم ، موجها نظرنا الى ضرورة فحص الأحكام والتأكد من مصدرها وفى ذلك ما فيه من الدعوة الى النقد الموضوعى •

ويحذر القرآن من اصدار الأحكام فى أمور لا علم للانسان بها حتى لا يقع فى الخطأ والتناقض • فيقول « **ولا تقف ما ليس لك به علم** »[٢٩] وعندما زعم الكفار أن الملائكة اناث عقب القرآن على زعمهم بقوله : « **أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون** »[٣٠] وهنا يريد القرآن أن يقول لهم : ان هذه الفكرة التى تزعمونها اذا كانت صحيحة فانها لا بد أن تكون مبنية على الملاحظة والمشاهدة اللتين هما وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة ••

ثانيا : يعرض علينا القرآن قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه والنقاش العقلى الذى دار بينه وبينهم حول أهمية الألوهية ، وما اشتمل عليه هذا النقاش من ادلة عقلية فى صورة متدرجة فى تسلسل منطقى رائع تحمل العقل على محاكاتها للوصول الى نفس نتائجها وهى الوصول الى اليقين الذى تشير اليه الآية فى بداية القصة « **وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** »[٣١] •

---

(٢٩) الاسراء ٣٦

(٣٠) الزخرف ١٩

(٣١) الأنعام ٧٥

وقد ازدانت الحضارة الاسلامية باعلام من المع المفكرين فى المجال الفلسفى من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجـه وابن طفيل وابن رشـد • وقد شـهد القرن التاسـع والعاشر الميلاديين حركة عقلية نشيطة دائبة لدى المسـلمين •

واذا كان المسـلمون قد نقلوا الفلسـفة اليونانية الى العربية فانهم قد برهنوا على قدرتهم على هضمها والاضافة اليها ونقـد ما فيها من قصور ، مدركين أن الفكر الفلسـفى فكر متطور وليس فكر جامدا ، فالبناء الفلسفى كما يقول ابو بكر الرازى (٨٦٤ ـ ٩٢٥ م) :

بناء تشترك فيه الأجيال ، ويضيف اليه كل جيل شـيئا جديدا(٣٢) يمهد به سبيل لمن يجىء بعده • فالكلمة الأخيرة فى الفلسفة لم يقلهـا جيـل بعينه والا اصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدى •

وقد برع العقل الاسـلامى فى ميادين اخرى كثيرة • ويمكننـا أن نشـير فى هذا الصـدد الى ابتكار المسـلمين علم الجبر من عدم • وما يزال هـذا العلم يحمل اسمه العربى فى لغات الغرب ، واضـاف المسلمون الى الاعداد المعروفة فى الغرب بالأعـداد العربية ـ اضـافوا اليها الصفر الذى أحدث ثورة حقيقية فى علم الحسـاب ، وكان احـد

---

(٣٢) ونص عبارة الرازى فى ذلك كما ورد فى رسائله الفلسفية : « اعلم ان كل متأخر من الفلاسفة اذا صرف همته الى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته علم علم من تقدمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء اخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمـه وفطن لفوائد اخرى واستفضلها اذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل » • انظر مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى للدكتور فرانتز روزنتال ص ١٨٥ ترجمة انيس فريحة ـ دار الثقافة بيروت ١٩٨٠

علماء المسلمين فى الرياضة وهو الخوارزمى (توفى حوالى ٨٤٧ م) هو الذى ابتدع اللوغارتم(٣٣) .

ولسنا هنا فى مجال حصر ابداع العقل الاسلامى فى دنيا العلوم على اختلاف أنواعها ، فهذا مجال يطول فيه الحصر ، ولسنا هنا أيضا فى معرض التغنى بالأمجاد أو اجترار الذكريات الجميلة ، ولكننا نقرر فقط بعض الواقع الذى كان اثرا من آثار التعاليم الاسلامية التى هيأت للعقل الاسلامى هذه الانطلاقة الفذة التى انتقلت بعد ذلك الى أوروبا عن طريق الترجمات المختلفة التى بدات فى بواكير القرن الثانى عشر فأحدثت فيها يقظة جديدة شهد بها المؤرخون الأوروبيون المنصفون .

ونريد الآن أن نبرز بعض الأفكار الهامة التى قدمها الاسلام وكانت ذات اثر حاسم فى التطور الفكرى والحضارى . وسنكتفى فى هذا الصدد بثلاثة أمثلة وهى : مبدأ الاجتهاد او الاستقلال العقلى ، وفكرة التوفيق أو الوسطية ، وأخيرا النظرة الاسلامية للتاريخ . وفيما يلى نلقى بعض الضوء على هذه الأفكار :

(ب) مبدأ الاجتهاد :

لقد أكد الاسلام على فكرتى التوحيد وختم النبوة ، ويعنى ذلك رفع الوصاية عن العقل . فعلى العقل اذن بعد أن انتهت النبوة وانقطع الوحى السماوى أن يعتمد على نفسه فى كل ما لم يرد فيه نص دينى ، وعلى العقل أن يثق فى قدراته . وقد كانت مناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام واصراره على أن النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأولين مصدر من مصادر المعرفة الانسانية ــ كانت كلها صورا مختلفة لفكرة انتهاء النبوة .

---

(٣٣) راجع هموم المثقفين للدكتور زكى نجيب محمود ٩٠ / ٩١ دار الشروق ــ القاهرة ــ بيروت .

ومن هذا المنطلق كانت هناك خطوات عملية هامة قام بها الاسلام للمساعدة على تطوير الفكر وتحريكه لاستمرار التقدم وتطوير الحياة . ومن بين هذه الخطوات كان مبدأ الاجتهاد أى الاعتماد على الفكر فى استنباط الأحكام الشرعية . وقد كان ذلك بداية النظر العقلى عند المسلمين . وقد نما هذا الاجتهاد فى رعاية القرآن . ويعتبر الاجتهاد مبدأ الحركة أو الديناميكية فى بناء الاسلام كما يقول اقبال [٣٤] (توفى عام ١٩٣٨) .

لقد امتدت سماحة الاسلام الى افساح المجال أمام العقل فى مجال الأحكام الشرعية التى لم ترد فيها نصوص ، فأباح له الاعتماد على نفسه وشجعه على ذلك ودفعه اليه دفعا . وتقررت فى ذلك قاعدة اسلامية تقول : ان المجتهد اذا اجتهد فأخطأ فله اجر واحد واذا اجتهد فأصاب فله أجران . وقد روى عن معاذ بن جبل ان النبى ﷺ لما بعثه واليا الى اليمن قال له : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله . . قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رايى . فوافقه النبى ﷺ على ذلك ومدحه على حسن ادراكه وفهمه [٣٥] .

وقد كان لمبدأ الاجتهاد أثره العظيم فى اثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين وايجاد الحلول السريعة للمسائل التى لم يكن لها نظير فى العهد الأول للاسلام . وقد نشأت عنه مذاهب الفقه الاسلامى الأربعة المشهورة التى لا يزال العالم الاسلامى يسير على تعاليمها حتى اليوم ، وادى الاجتهاد ايضا الى ظهور علم فلسفى هو علم اصول

---

(٣٤) انظر تجديد التفكير الدينى فى الاسلام للدكتور محمد اقبال ترجمة عباس محمود ص ١٤٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ . القاهرة ١٩٦٨

(٣٥) راجع جامع بيان العلم وفضله لأبى عمر يوسف بن عبد البر ج ٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨ هـ . ١٩٦٨ م) .

الفقه الذى يعــد بمثابة فلســفة للتشريع الاســلامى ٠ وكان أول من ابتكر هذا العلم هو الامام الشـافعى ، وذلك قبل أن يتأثر الفكر الاســلامى بالفلسفة اليونانية(٣٦) ٠

وهكذا كان ركون المسلم الى عقله فيما يشكل عليه مما لم يرد فى شــأنه نصوص هو الدعامة الأولى فى الوقفة العقليــة عند الاسلام ، تلك الوقفة التى اقام عليها حضارته وثقافته على امتداد تاريخه خلال القرون التى شهدت قوته وقدرته على الابداع(٣٧) ٠

(ج) فكرة التوفيق أو الوســطية :

أما الفكرة الثانية وهى فكرة التوفيق أو الوسطية فنراها تسود تعاليم الاســلام ، فالانسان جسم وروح ، ولا يريد الاســلام ان يغلب أحدهما على الآخر بطريقة تخل بالتوازن بينهما ، وانما يحرص على التوفيــق بين مطالب الجســم ومطالب الروح فى تناســق رائع ٠ فالانســان له ان يتمتع بكل الخيرات التى أحلها الله له فى هــذه الحياة ٠ وفى الوقت نفســه لا ينبغى له ان يهمل مطالب روحه ٠ يقول القرآن : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** »(٣٨) ويقول الرسول ﷺ (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)(٣٩).

---

(٣٦) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١٢٣ ـ مكتبة النهضــة المصرية بالقاهرة ١٩٦٦ ٠

(٣٧) هموم المثقفين ص ٨١

(٣٨) القصص ٧٧

(٣٩) على الرغم من ان علماء الحديث قد تكلموا فى ســند هــذا الحديث فان معناه صحيح ٠ وقد رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث موقوفا عن عبد الله بن عمر ، ورواه ابن المبارك فى الزهد من طريق آخر موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه البيهقى مرفوعا عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ ٠

وقد سمع النبى ﷺ ثلاثة من اصحابه يتحدثون عن عبـــادتهم ووجد انهم يبالغون فى العبادة الى حد اهمال مطالب الجســد اهمالا يكاد يكون تاما . فقد قال أحدهم انه يقضى ليله دائما فى الصـــلاة ، وقال الآخر انه يصــوم بصفة مستمرة . وقال الثالث انه يعتزل النساء ولا يتزوج ابدا . فلم يوافقهم النبى على ذلك وبين لهم انه أخشــاهم لله وأتقاهم له ومع ذلك فهو يصوم ويفطر . ويصلى ويرقد ، ويتزوج النســاء وان هــذه هى سنته التى ينبغى السـير على نهجها وان من ابتعد عن هذا الخط الواضح كان بعيدا عن النبى وتعاليمه[٤٠] .

وهذه الفكرة التى رأيناها تســود العلاقة بين الجسم والروح وهى فكرة التوفيق أو الوسطية نجد لها نظيرا فى العلاقة بين العقل والدين . فالاسلام يحرص اشد الحرص على الا يكون هنـاك نزاع أو تناقض بين العقل والدين ، فكلاهما من مصدر واحد ، قد خلقهما الله لهداية الانسان وارشـــاده ، وكلاهما أثر من آثار الكامل وهو الله ، وآثار الكامل لا يناقض بعضها بعضــا .

ولا يجوز من وجهة النظر الاســلامية وضــع المســالة على أساس أن هناك خصومة بين الدين والعقل ، وان الانســان فى موقف الاختيـار بينهما . فهما عنصران جوهريان يتلازمان ولا يتناقضــان والانســان فى حاجة اليهما معا . والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف ومن حقه فى الفهم والتفكير فى ملكوت الســموات والأرض ، وانما يدفعه الى ذلك دفعا . والاســلام يعتبر العقل مناط انسانية الانسان وجوهرها ، فاذا عطل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الانســان وهبط بذلك الى مرتبة الحيوان .

---

(٤٠) انظر نص هذا الحديث فى صحيح البخارى مرويا عن انس ابن مالك (كتاب النكاح ١) .

وهكذا حسم الاسلام الخصومة المصطنعة بين الدين والعقل ، وحرر الانسان من أزمة الصدام بين الدين والعلم . ولهذا فليس الاسلام فى حاجة الى العلمانية (Secularization) لأن الأسباب التى أدت الى العلمانية فى أوروبا لا مكان لها فى الاسلام ، والزعم الشائع فى تاريخ الفكر الانسانى بأن هناك صراعا مستمرا وتناقضا أبديا بين الدين والعقل او بين الدين والعلم لا ينطبق بحال من الأحوال على الدين الاسلامى ، فكلاهما ـ الدين والعقل ـ يشكلان فى الاسلام وحدة واحدة .

وقد كان لفكرة التوفيق وروح الاعتدال التى تنطوى عليها تعاليم الاسلام اثرها العظيم فى سريان هذه الروح وانتشار هذه الفكرة فى الحضارة الاسلامية بصفة عامة والثقافة الفلسفية بصفة خاصة . ولهذا رأينا الفلاسفة المسلمين يتجهون فى فلسفتهم الى تأكيد التوفيق بين الدين والفلسفة ، وبيان توافق المصدرين ، مصدر الدين ومصدر الفلسفة ، فى المعرفة والوصول الى الحقيقة . وقد اتخذ التوفيق لديهم صورا عديدة .

فقد ركز ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ ـ ١٠٣٠ م) على الغاية . ولهذا اهتم بالتوفيق بين غاية كل من الأخلاق ـ وهى فرع من فروع الفلسفة ـ والدين من حيث أن كلا منهما يهدف الى سعادة الانسان[٤١] . وكذلك اهتم ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٣ م) بالمعنى العملى لكل من الفلسفة والدين وذهب الى ان غرضهما هو اصلاح النفس وانه لا خلاف بين الفلسفة والشريعة فى ذلك[٤٢] .

أما الكندى (ت ٢٥٢ هـ ـ ٨٦٥ م) الذى عرف الفلسفة بأنها علم الأشياء بحقائقها فانه يرى أنها لا يمكن أن تتناقض اطلاقا مع

---

(٤١) انظر فلسفة الأخلاق فى الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى ص ٩٦ . القاهرة ١٩٦٣

(٤٢) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٧

الدين ، فغايتهما واحدة[٤٣] • ويقرر الكندى صراحة توافق العقل والنقل ، أو الفلسفة والدين • وفى هذا الصدد يقول فى رسالته الى المعتصم ـ وهى الرسالة التى تدور حول علم الأشياء بحقائقها، اى حول الفلسفة: «علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة ، وجملة كل علم نافع والسبيل اليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هـذه جميعا هو الذى اتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ، فان الرسل الصادقة صلوات الله عليها انما اتت بالاقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاه عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وآثارهـا » (رسائل الكندى الفلسفية ج ١ ص ١٠٤) •

ويرى الفارابى (ت ٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م) أن موضـوعات الدين وموضـوعات الفلسـفة واحـدة (فكلاهما يعطى المبادىء القصـوى للموجودات • فانهما يعطيـان علم المبدأ الأول والسبب الأول للموجودات • ويعطيان الغاية القصـوى التى لاجلها كون الانسـان وهى السـعادة القصوى) • والفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح ، فان بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك الا لأن النظام الفلسـفى الذى تناقض مع الدين يعتبر نظاما واهيـا لم تكتمل فيـه البراهين المؤدية الى اليقين ، فالحقيقـة واحـدة لدى الفارابى ولكن الطريق اليها متعدد[٤٤] •

ويرى ابن سـينا (ت ٤٢٨ هـ ـ ١٠٣٦ م) انه لا يوجـد فى اقسام الحكمة (اى الفلسفة) ما يخالف الدين او يتعارض معه • ويرجع ضلال ادعيـاء الفلسفة عن منهاج الشرع الى قصـور فى تفكيرهم وعجز فى افهامهم • وفى ذلك يقول : لقد « ظهر انه ليس شىء منها (اى الفلسفة) ..

(٤٣) انظر المزيد من التفصيل فى ذلك فى : (الكندى وفلسفته) للدكتور محمد عبـد الهادى ابو ريده ص ٥٣ وما بعدها (دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٠) •

(٤٤) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٨ • وتأملات فى الفكر الاسلامى ص ٣٠٤ وما بعدها •

ما يشتمل على ما يخالف الشرع ، فان الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع انما يضلون من تلقاء انفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم لا أن الصناعة نفسها توجبه ، فانها بريئة منهم »(٤٥) .

وقد بين ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م) فى قصته الفلسفية المشهورة (حى بن يقظان) كيف يستطيع الانسان عن طريق عقله ودون معونة من خارج ان يتوصل الى معرفة العالم العلوى ويهتدى الى معرفة الله وخلود النفس ، وان ما يتوصل اليه من معارف لا يتناقض مع مقررات الدين(٤٦) .

اما ابن رشد فقد تناول بالمقارنة العامة الخطوط الأساسية لكل من الدين والفلسفة رغم اختلاف منهجيهما ، وبين فى كتابه (فصل المقال) اتفاق الدين والفلسفة قائلا : ان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له ، وقال ايضا « ان الحكمة (أى الفلسفة) هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة »(٤٧) .

اما الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م) فقد حرص على ضرورة الحفاظ على وحدة العقل والدين وان كان لم يذكر الفلسفة فى هذا الصدد باللفظ . فالانسان كما يقول ـ لا يستطيع أن يستغنى عن الدين أو العقل . فالعقل كالأساس والدين كالبناء ولا يمكن تصور احدهما بدون الآخر ، فلا نفع فى اساس بدون بناء ، ولاثبات لبناء بدون أساس . ولذلك يرى الغزالى انهما متحدان اتحادا لا يمكن فصله ، ومن يجرؤ على تعطيل اى منهما فهو ـ فى راى الغزالى ـ اما جاهل أو مغرور .

واذا لم يكن هناك تناقض بين العقل والدين فانه ليس هناك ايضا ـ كما يقول ـ تناقض بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ، وعدم

---

(٤٥) نقلا عن تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٦١

(٤٦) انظر تاريخ الفلسفة فى الاسلام لديبور وترجمة الدكتور أبو ريده ص ٣٧٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

(٤٧) راجع فصل المقال لابن رشد ص ١٥ ، ٣٥ / ٣٦

القدرة على الربط بينهما يرجع فى رايه الى عمى فى البصيرة يحجب الرؤية الصحيحة[٤٨] .

فاذا انتقلنا من عصر تلك النخبة الشهيرة من فلاسفة المسلمين واتجهنا الى العصر الحديث نجد الامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) يقول فى علاقة الدين بالعقل فى الاسلام : (لقد تاخى العقل والدين لاول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل) وتقرر بين المسلمين كافة ـ الا من لا ثقة بدينه ولا بعقله ـ ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وارسال الرسل وادراك فحوى الرسالة والتصديق بها ، كما اجمعوا على ان الدين اذا اتى بشىء يعلو على الفهم فلا يمكن ان ياتى بما يستحيل عند العقل . فالعقل من اشد اعوان الدين الاسلامى[٤٩] .

ومن كل ذلك يتضح لنا ان وحدة الدين والعقل هى الخط الواضح للاسلام . والذى يدرس تاريخ العلوم الاسلامية وتطورها يرى ان روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعا عاما للمسلمين فى كل العلوم النظرية تقريبا . فنحن نجدها فى علم العقيدة وفى الفقه والتشريع وفى التصوف وفى الفلسفة[٥٠] وكان الهدف الأكبر لفلاسفة العرب هو أن يقدموا للعالم نظرية كاملة عن وحدة الكون ترضى الدين والعقل معا ، ولذلك سعوا الى التوفيق بين الجانب الخلقى والروحى والجانب الفلسفى من العلم[٥١] .

---

(٤٨) راجع معارج القدس للغزالى ص ٤٦ (المكتبة التجارية الكبرى ـ بدون تاريخ) ، واحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٦ ، ١٧ . (طبع مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٣٩) .

(٤٩) رسالة التوحيد ص ٤٥ ، ٥٣

(٥٠) انظر تعليق الدكتور محمد يوسف موسى فى ص ١٩٧ / ١٩٨ من ترجمته لكتاب جوتييه : المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية . القاهرة ١٩٤٥

(٥١) انظر روح الاسلام من تاليف سيد امير على وترجمة امين محمود الشريف ص ٣١٥ (من سلسلة الألف كتاب . القاهرة ١٩٦١) .

ويبرز بعض المفكرين المسلمين المعاصرين اهمية الدور الكبير للاسلام فى تطور الفكر الانسانى بصفة عامة ٠ ويتمثل ذلك فيما قامت به الثقافة الاسلامية من دمج عظيم للعناصر الايجابية فى حضارتين متجاورتين ومتنافرتين وهما حضارة الفرس وثقافتهم من جهة ، وحضارة الروم وثقافتهم من جهة أخرى ٠ فقد كانت الاولى ذات صبغة صوفية والثانية ذات صبغة عقلية ٠ وبظهور الاسلام وفتوحاته انهدمت الفواصل بين هاتين الثقافتين ، فاخرج الاسلام الى العالم صيغة حضارية ثقافية اسلامية جديدة تسع الانسان اينما كان ، فى اتجاه نحو عالمية الثقافة ٠ ويرجع ذلك الى ان مبادىء العقيدة الاسلامية تشتمل على ما يهيىء الانسان لاستخدام المنطق العقلى فى شئون فكره ومعاشه ، كما تشتمل كذلك على ما يعده للاتصال بالله مباشرة مما لا يحتاج الى تدليلات المنطق العقلى ٠ وهكذا التقى الشرق والغرب فى بوتقة واحدة ٠ فقد جمعت الصيغة الجديدة بين ادراك الحدس الصوفى وادراك العقل الاستدلالى بحيث احتملت الحياة الثقافية فى الجماعة الاسلامية ان يظهر فيها أعظم المتصوفة واعظم مناطقة العقل فى آن واحد[٥٢] ٠

وبعد هذا العرض لفكرة التوفيق ننتقل الآن الى الاشارة باختصار الى الفكرة الثالثة المتمثلة فى نظرة الاسلام الى التاريخ ٠

(د) نظرة الاسلام الى التاريخ :

يشير القرآن فى كثير من آياته الى ان المعرفة الانسانية تعتمد على الحواس والعقل ، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد : « والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكل السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ـ النحل ٧٨ ـ وهذا يعنى استبعاد كافة المعارف الأخرى التى تعتمد على الخرافات والأوهام او الكهانة والسحر وما شاكل ذلك ٠

ونحن اذا تأملنا آيات القرآن فاننا نستطيع ان نستخرج منها أصول المعرفة بالحقائق الكبرى وهى : الله والكون والانسان والقيم ، وكذلك

---

(٥٢) انظر هموم المثقفين ص ٨٢ / ٨٣

اصــول تنظيم الحياة العمليــة وتشكيل الأخلاق ، ونجد فيه ايضا منهجا لتحصيل المعرفة الحسية التجريبية والمعرفة النظرية(٥٣) .

وقد اهتم القرآن ايضا بالتاريخ بوصفه احــد مصــادر المعرفــة الانســانية . فالقرآن يتحدث كثيرا عن الأمم السابقة ، ويدعو الى الاعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وحاضرهم . ويقدم القران فى هذا الصدد أصــول منهج متكامل فى التعامل مع التاريخ البشرى ، ينتقل بهذا التعامل من مجرد العرض والتجميع الى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية(٥٤) تلك القوانين التى يعبر عنها القرآن بسنن الله .

ويهتم القــرآن ايضــا بالاشــارة الى ضرورة التدقيــق فى رواية الحقائق . وفى ذلك يقول : « يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاســق بنبأ فتبينوا »(٥٥) وبذلك وضـــع امامنــا اهم قاعــدة من قواعــد النقد التاريخى ، وتتمثل فى ان اخلاق الراوى تعد عاملا هاما فى الحكم على روايته ، وقــد افاد المسلمون افادة عظيمة من هذه القاعدة وتطبيقها على رواة الأحاديث النبوية . وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث النبــوية هو الذى تطــورت عنــه بالتدريج قواعـــد النقــد التاريـخى(٥٦)

وقد أمد القرآن المؤرخين المسلمين بفكرتين رئيسيتين كان لهما اثرهما فى توجيههم الى كتابة التاريخ كتابة علميــة .

---

(٥٣) انظر بحث الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة عن (مفهوم الوحى) فى : (الملتقى الاسلامى المسيحى الثانى) ص ١٠٤ . من منشورات الجامعة التونسية ١٩٨٠

(٥٤) انظر التفسير الاسلامى للتاريخ للدكتور عماد الدين خليــل ص ٨ ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥

(٥٥) الحجرات ٦

(٥٦) انظر تجديد التفكير الدينى فى الاســلام لاقبال ص ١٦٠ وما بعدها .

أما الفكرة الأولى فهى فكرة وحدة الأصل الانسانى • فالقرآن يقرر أن الله قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، وأن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا • ويهدف القرآن من وراء هذه الفكرة ان تكون عاملا حيا فى الحياة اليومية لكل مسلم • أما الفكرة الأخرى فتتمثل فى تصور الوجود حركة مستمرة فى الزمان • فالتاريخ حركة جمعية مستمرة وتطور حقيقى فى الزمان لا مفر منه • وقد كان لهذه التوجيهات القرآنية أثرها العظيم فى نظرة ابن خلدون الفلسفية للتاريخ • وكتاب ابن خلدون الشهير المسمى بالمقدمة يدين بالجانب الأكبر فيه الى ما استوحاه من القرآن[٥٧] • وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م) ـ كما هو معروف ـ يعد أول فيلسوف للتاريخ ورائدا عبقريا فى مجال الفلسفة الاجتماعية • فقد كان أول من حاول ان يربط بين تطور الاجتماع الانسانى وبين أسبابه القريبة ، مع حسن ادراك لمسائل البحث وتقريرها مؤيدة بالأدلة المقنعة • فهو ينظر فى أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب ونحوها ، ويعرضها مع بيان تاثيرها فى التكوين الجسمى والعقلى فى الفرد وفى المجتمع ، وهو يرى أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة يسير عليها كل منهما فى تطوره[٥٨] •

وهكذا رأينا مدى اسهام الاسلام فى تطوير الفكر الفلسفى ودعمه وبناء الحضارة الانسانية من خلال الأمثلة التى عرضناها وهى مبدأ الاجتهاد وفكرة التوفيق والنظرة الاسلامية للتاريخ • ولسنا فى حاجة الى التاكيد على ان هذه الامثلة تمثل فقط بعض الأفكار ـ وليس كل الأفكار ـ التى اتى بها الاسلام فى هذا الصدد • ويبقى علينا الآن توضيح الجانب الآخر من القضية وهو الجانب التاريخى لبيان مدى تاثير الاسلام فى تطور الفكر الانسانى خارج نطاق العالم الاسلامى •

* * *

---

(٥٧) المرجع السابق ص ١٦٠ ـ ١٦٢

(٥٨) انظر تاريخ الفلسفة فى الاسلام لديبور ص ٤١٠

٢ ـ الجانب التاريخى :

(ا) التاثير الاسلامى فى فلسفة العصور الوسطى :

ليس هناك من شك فى أن التراث الحضارى الانسانى أخذ وعطاء ، وليست هناك أمة ذات حضارة عريقة الا وقد اعطت كما اخذت من هذا التراث . وليس من المعقول بالنسبة لأمة من الأمم تريد بناء نفسها أن تبدأ من نقطة الصفر وتعيد نفس التجارب التى مرت بها أمم سابقة ، فهذا ضرب من العبث . والفكر لا يعترف بحدود مصطنعة بين الأمم ، بل يخترق الحواجز ويفرض نفسه رغم كل العقبات .

واذا كانت هذه المقولة صحيحة ، ونعتقد انها كذلك ، فانه لمن الغريب حقا أن يحاول بعض العلماء الأوروبيين بيان اثر الفلسفة اليونانية على الفلسفة الاسلامية لدرجة وصلت بالبعض الى القول بان هذه ليست الا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، وفى الوقت نفسه يرفض هذا البعض ـ من منطلق عقدة التفوق ـ رؤية أى أثر للفكر الاسلامى على الفكر الأوروبى . ونود هنا ـ بصدد دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى ـ أن نلمس موضوع علاقة الفكر الاسلامى بالفكر الأوربى لمسا خفيفا ، اذ اننا لن نستطيع فى هذا البحث الموجز أن نغطى كل نقاط هذا الموضوع ونستوفى جميع جوانبه . وهذه العلاقة جديرة حقا بالبحث ، فلم يكن المسلمون مجرد وسيلة الية نقلت الى اوربا فلسفة اليونان . فهذا منطق غير علمى وافتئات على الحقيقة .

لقد كان العلماء المسيحيون فى اوروبا يعملون جاهدين منذ عام ١١٣٠ م على ترجمة الفلسفة العربية الى اللاتينية(٥٩) . وقد التقى العالم المسيحى فى أوربا بالعالم الاسلامى فى نقطتين : فى ايطاليا الجنوبية واسبانيا . وكانت توجد فى اسبانيا حركة ترجمة نشيطة . فقد كان يوجد فى مدينة طليطلة عندما فتحها المسيحيون مكتبة عربية

---

(٥٩) Des Fischer Lexikon : Philosophie, p. 139, Frankfurt / M. 1963.

حافلة فى احــد المســاجد • وكانت هــذه المكتبة ذات شــهرة عظيمة(٦٠) • ويرتبــط انتقال المــادة الفلســفية العربية الى اللاتينية بصفة خاصــــة بريموند (Raymund) الذى كان رئيس اســاقفة طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠ وبعد ذلك رئيسا لأســاقفة اسبانيا • فقــد اسس مجمعــا للمترجمين عهد برئاسته الى دومينيك جونديسالفى Dominic Gondisalvi وأسند اليه مهمة اعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية فى الفلســفة والعلوم • وكانت هذه الترجمات التى وصلت الى أيدى الغرب اســـاس الفلسفة المدرســية فى أوربا(٦١) •

وفى عام ١٢٢٠ أصبح فريدريك الثانى امبراطورا • وكان على اتصــــال وثيق بالمسلمين واعجاب كبير بهم ، فاتخذ اللباس الشرقى وكثيرا من العــادات والتقــاليد العربية • ولكن الأهم من هــذا كان اعجابه الشديد بالفلاســفة العرب الذين كان بامكانه قراءة كتبهم الأصلية باللغة العربيــة التى كان يجيدها • وكانت علوم العرب تدرس بشغف فى قصر فريدريك الثانى فى بالرمو Palermo وبذلك جعلت فى متناول اللاتينيين • وقــد اهــدى الامبراطور وابنه (ما نفرد) الى جامعات بولونيــا وباريس ترجمات لكتب فلســفية مترجمــة عن العربيــة • وفى عام ١٢٢٤ أسس الامبراطور جامعــة نابولى وجعل منها اكاديمية لادخال العلوم العربيــة الى العالم الغربى(٦٢) •

ومما هو جــدير بالذكر فى هــذا الصــدد هو أن القديس توماس Thomas of Aquin قد تلقى علومه قبــل دخوله ســلك الرهبنة

---

(٦٠) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ٤١٧

(٦١) راجع كتاب دى لاسى أوليرى : الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ • ترجمة اسماعيل البيطار بيروت ١٩٧٢

(٦٢) المرجع الســابق ٢٣٧ ـ ٢٣٨ • وتاريخ الفلسفة فى الاســلام ص ٤١٧

فى هذه الجامعة . ولعل هذا كان السبب الذى حدا به الى الاهتمام بتعاليم الفلاسفة العرب الى الحد الذى حمله على تقديرها تقديرا دقيقا جدا[٦٣] وقد كان لكل من ابن سينا وابن رشد بصفة خاصة حجية عظيمة فى العصور الوسطى فى أوربا[٦٤] . وأصبح هناك تيار يعرف بالسينائية (Avicennism) وتيار آخر يعرف بالرشدية (Averroism)

وقد كانت الفلسفة المدرسية المسيحية ممثلة فى البرت الكبير (Albertus Magnus)وتوماس متفقة فى بعض آرائها مع ابن سينا ، وبوجه خاص فى نظرية المعرفة ، كما اخذ البرت وتوماس بما رآه ابن سينا فى مسالة الكليات (Universalia) وفى هذه النقطة كثيرا ما اقتبس توماس والبرت من ابن سينا بوصفه صاحب حجية ، كما اخذ توماس بما رآه ابن سينا من الفصل الحاد بين الماهية والوجود.[٦٥] ونجد أيضا تاثير ابن سينا حيا وقويا فى تعريف البرت للنفس وفى نظريته فى النبوة . وقد اتخذ دانس سكوت Duns Scotus من فلسفة ابن سينا الى حد ما أساسا بنى عليه أقواله فى ما وراء الطبيعة ، وقد نبه بعض الباحثين الى وجود سوابق لدى ابن سينا للكوجيتو (cogito) الديكارتى[٦٦] .

ويثبت كارادى فو (Carra de Vaux) وجود سينائية لاتينية فى أوربا فى القرون الوسطى تتركز الناحية البارزة منها على العنصر العربى أكثر مما تتركز على العنصر الأوغسطينى (Augustinism) أو اى تلوين

---

(٦٣) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٤٣

(٦٤) J. Hirshberger, Kleine Philosophiegeschichte, p. 76, Freiburg 1961.

(٦٥) Ernst Bloch, Avicenna und die Aristotelische Linke p. 46 , 51 . Suhrkamp Verlag 1963.

(٦٦) انظر : تراث الاسلام لشاخت وبوزورث، ترجمة د . حسين مؤنس واحسان العمد . القسم الثانى ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ : سلسلة عالم المعرفة بالكويت . نوفمبر ١٩٧٨

آخر من التفكير المسيحى فى القرون الوسطى[٦٧] .

وقد كان روجر بيكون (Roger Bacon) من المعجبين بابن سينا وكان لا يخفى هذا الاعجاب[٦٨] ، فقد قدر لهذا الاتجاه الآتى من ابن سينا أن ينتشر ويزدهر الى اقصى حد فى فكر روجر بيكون الذى تأثر بابن سينا والفارابى الى درجة أن نظريته عن قداسة البابا تتفق تمام الاتفاق مع النظريات التى قال بها ابن سينا عن الخلافة[٦٩]

وكان لآراء الفارابى اثرها لدى البرت الكبير من نواح مختلفة[٧٠] . وقد كان لكتاب احصاء العلوم للفارابى أثره العظيم لدى المؤلفين فى القرون الوسطى فى أوربا . وقد أعطى الفارابى فى هذا الكتاب فكرة عامة واضحة عن موضوع كل علم من العلوم المشهورة فى زمانه وبين فائدته النظرية والعملية . وقد اقتبس العالم الأسبانى جنديسالينوس (Gundissalinus) فى القرن الثانى عشر معظم هذا الكتاب وضمنه كتابه المعروف بتقسيم الفلسفة . كما أفاد روجر بيكون من كتاب الفارابى كثيرا . وأفاد منه ايضا كثيرا جدا ، وخاصة فيما يتعلق بالكلام على الموسيقى جيروم دى مورافى (Jerome de Moravie) فى القرن الثالث عشر[٧١] .

أما عن ابن رشد فانه كان يمثل منطلقا لتطور جديد فى العالم

---

(٦٧) سلفادور غومث نوغالس : الفلسفة الاسلامية وتأثيرها الحاسم فى فكر الغرب . ص ٤٦ . ترجمة عثمان الكعاك . الدار التونسية للنشر ١٩٧٧

(٦٨) المرجع السابق ص ٥٣

(٦٩) تراث الاسلام ص ٢٦٦

(٧٠) د . ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية ج ١ ص ١١٤ / ١١٥ . دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦

(٧١) انظر احصاء العلوم للفارابى تحقيق وتقديم د . عثمان أمين ص ٢٣ وما بعدها مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨

الغربى ، كمـــا ان المذهب التــومائى لم يكن يمكن تصـــوره بدون ابن رشـــد[٧٢] . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت جميع مؤلفات ابن رشـد الفلسفية تقريبا قد ترجمت الى اللاتينية[٧٣] وقد اثبت رينان وجود رشـدية لاتينية فى أوروبا فى كتابه عن ابن رشد والرشدية . وقد عاشت الرشـدية فى أوربا عـدة قرون واسهمت اسهاما عظيما فى قضية الحرية الفكرية فى القرون الوسطى فى أوربا[٧٤] .

وقد كان أول دليـل على الذيوع لافكار ابن رشـد يرتبط بوليـم الافرنى (William of Auvergne) الذى كان مطرانا لباريس . فقد اشاد بابن رشـد باعتباره مدافعـا حقيقيا عن الحقيقـة ، وكان يقتبس منه كثيرا ، معتبرا اياه المعلم الأكثر صـوابا[٧٥] .

وقد تابع القديس توماس ابن رشـد فى شرحه للعلاقة بين الوحى والمعرفة الفلسـفية ، وقد بين أسـين بلاثيوس (Asin Palacios) . فى بحث له على اساس مقارنة النصوص التى عند ابن رشـد وتوماس أن الاتفاق بينهما لم يقتصر على وجهـة النظر الاجمالية والأفكار والأمثلة بل كان فى الألفاظ أحيانا ، وبين بلاثيوس ان ذلك ليس اتفاقا عارضـا ولا مبنيا على رجوع كل منهما الى اصـل مشترك . وانما يرجع الى أن القديس توماس عرف آراء ابن رشـد وانتفع بها[٧٦] .

وقد اسـتمر أثر الرشدية فى أوربا حتى القرن السـابع عشر . وقد بشر هذا الأثر بالمذهب العقلى الذى سـاد فى عصر النهضة الأوربية[٧٧] .

---

(٧٢) Fischer Lexikon, p. 139.

(٧٣) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٣٩

(٧٤) Hischberger, p. 92.

(٧٥) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ٢٣٩ ، ٢٤٠

(٧٦) انظر تراث الاسلام ٢ / ٢٦٢ (هامش للمترجمين) .

(٧٧) المرجع السـابق ص ٢٧٣ ، والفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٤٦

أما حجة الاسلام الغزالى فقد كان له تاثير بصورة مباشرة واحيانا بصورة غير مباشرة على عالم الفكر الأوربى وحتى على عالم الفكر الحديث كما سنوضح ذلك بعد قليل • وقد امتد تاثير الغزالى عن طريق رايموند مارتين (Raimund Martin) الى توماس الاكوينى أولا وفيما بعد على باسكال[٧٨] وفى كتاب (الطعنة النجلاء ضد المغاربة واليهود) الذى الفه رايموند مارتين كانت حججه ماخوذة فى معظمها من كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى •

كما أن الاعتراضات التى أوردها القديس توماس على مذهب وحدة العقول وغيره هى نفس الاعتراضات التى كان قد أوردها علماء الكلام المسلمين من أهل السنة تقريبا • وجاءت الى توماس عن طريق الغزالى[٧٦] •

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء مدى تأثير الفلسفة الاسلامية فى الفكر الأوربى • وقد اعتمدنا فى عرضنا لهذه النقطة بالذات بصفة أساسية على مؤلفين أوربيين •

ونود فى هذا الصدد ان نشير أيضا الى ما ذكره بهذا الخصوص عالم اسبانى معاصر ركز فى أبحاثه على علاقة الفلسفة الاسلامية بالفلسفة الاوربية فى القرون الوسطى وهو سلفادور جومث نوجالس (S. Gomez Nogales) حيث يقول : انا مقتنع كل الاقتناع بأن هناك تاثيرا مباشرا للفلسفة الاسلامية فى أوروبا فى القرون الوسطى • بل أقول اكثر من ذلك انه لولا هذا التاثير الذى كان لنفلسفة الاسلامية على الفلسفة المسيحية ربما ما كانت الفلسفة المسيحية تقدر على اجتياز تلك الخطوة العملاقة التى نقدرها عند عباقرة الفلسفة المدرسية امثال القديس توماس ، أو على الأقل لم تكن لتخطو تلك الخطوة العملاقة

---

(٧٨) Handwoerterbuch des Islam, p. 142 , Leiden 1976.

(٧٩) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٤٢ ، ٢٤٤

بنفس السرعة التى تظللنا . ويقول نوجالس ايضـا : ان الاستنتاج الذى توصـل اليـه من دراسـاته المقارنة بين الفلسـفة الاسـلامية والفلسفة المسـيحية فى القرون الوسـطى هو وجود تيارات فى التفكير الأوروبى الوسـيط تلتقى مع الفلسـفة العربية المعاصرة لها فى نقط مجسـدة غاية التجسـيد ، وهنالك قضـايا محررة ونقط مذهبية محـددة بالذات كل التحديد فى التفكير المسيحى فى القرون الوسطى اذا تتبعناها فى خط سـيرها نجد انها تصل بنا الى المؤلفين العرب .

وينتهى نوجالس الى القول الذى يصـوغه بصيغة التأكيد القاطع : ان الفلسـفة الاسـلامية قد أثرت تأثيرا حاسـما فى تفكير الغرب فى القرون الوسـطى[٨٠] .

ونظرا لأن دراسـات نوجالس مقتصرة على القرون الوسـطى فانه لم يتعرض بطبيعة الحال الى امتداد التاثير الاسـلامى الى العصر الحديث . وهذا الموضـوع لم يحظ حتى الآن الا بالقليـل جدا من اهتمام الباحثين .

* * *

(ب) التاثير الاسلامى فى فلسـفة العصر الحديث :

لقد اتضح لنـا مما تقدم أن الفلسـفة الاسلامية كان لها تاثيرها العظيم فى الفلسـفة الأوربيـة فى القرون الوسطى ، واذا كانت هـذه الفلسـفة قد اثرت بدورها فى الفلسـفة الأوربيـة الحديثة فاننا نستطيع ان نقول بوجـود تاثير غير مباشر للفلسـفة الاسـلامية على الفلسـفة الحديثة . ولكن هـذا لا يعنى عـدم وجود تاثير مباشر أيضـا . ونريد هنـا أن نشـير الى بعض جوانب هذا التاثير ، وآمل ان يجـد هـذا الموضـوع حقـه من الاهتمام من جانب الباحثين المعنيين . واول جوانب التاثير فى العصر الحديث تتمثل فى تاثير الغزالى على ديكارت .

فقـد اعتمد الغزالى الشـك المنهجى سبيلا للوصـول الى اليقـين الفلسـفى . ورسـم الغزالى خطوات هـذا المنهج بالتفصـيل بصفة اساسية

---

(٨٠) الفلسفة الاسلامية وتاثيرها الحاسم فى فكر الغرب ٦٢ ـ ٦٤

فى كتابه (المنقذ من الضلال) فرفض التقليد والتبعيـة الفكرية رفضـا قاطعـا وأكد على ضرورة الاسـتقلال العقلى فى إلبحث عن الحقيقة • وقام بنقد المعارف الانسانية والشـك فيها ابتـداء من المعارف الحسـية الى المعارف العقليـة • وناقش مسـألة اليقين وقضية العقيـدة ومشـكلة التفرقة بين المعارف التى يحصل عليها المرء فى اليقظة ومثيلتها فى المنام • وأخيرا مشكلة الشـك الميتافيزيقى المتمثلة فى تصـور شـيطان مخادع او كائن مضـلل حتى توصـل فى النهاية الى اليقين الفلسـفى الذى لا يتزعزع والذى عبر عنـه بعودة الثقة فى الضروريات العقلية • وتوصل بطريقة عقليـة ـ لا صوفية كما يزعم البعض ـ الى معرفة الذات ومعرفة الله مما لا يسـمح المجال الآن بعرض تفصيلاته •

وقـد كان للشـك المنهجى الذى وضـع الغزالى جميـع خطواته اثره البالغ فيما عرفه الفكر الفلسـفى بعد ذلك لدى ديكارت الذى يعده المؤرخون ابا للفلسـفة الحديثة كلها • فالخطوات التى سار عليها الغزالى فى شـكه المنهجى هى نفس الخطوات التى سـار عليها ديكارت بعـده بأكثر من خمسـة قرون واعتبر نمهج الديكارتى فتحا جديدا فى عالم الفلسـفة[٨١] •

وقد اكد احد الباحثين فى عام ١٩٧٦ تاكيدا قاطعا اطلاعه على دليل فى مكتبة ديكارت يثبت تعرف ديكارت على فكر الغزالى وتأثره به عن طريق ترجمـة لكتـاب (المنقذ من الضـلال) للغزالى • وقد ضـمن هذا الباحث وهو المؤرخ التونسى المرحـوم عثمان الكعاك هـذه الأقـوال فى بحثـه الذى قـدمه الى ملتقى الفكر الاسـلامى فى الجزائر عام ١٩٧٦[٨٢] •

---

(٨١) انظر فى ذلك كتابنا : المنهج الفلسـفى بين الغزالى وديكارت ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١ • ودار القلم بالكويت ١٩٨٣

(٨٢) انظر تفصيل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابنا : المنهج الفلسـفى بين الغزالى وديكارت •

ويمكن الاشــارة الى جوانب أخرى لدى الغزالى نجد لها صــدى فى فكر فلاســفة آخرين غير ديكارت من اقطاب الفلســفة الحديثة • ومن ذلك نقــد الغزالى المسهب لمبــدأ الســببية ورد العلاقة بين السبب والمسبب الى العادة واعتبارها مجرد علاقة زمانية بين شيئين ، هذا النقد وجدناه بعينه لدى دفيــد هيوم (David Hume) ، بل ان هيوم لم يأت بجديد فى هذا الصــدد ، وهذا ما لا حظه رينان حين قال : ان هيوم لم يقل فى نقــد مبدأ الســببية أكثر مما قاله الغزالى[٨٣] •

ويمكن عقــد مقارنات اخرى كثيرة مثمرة بين فلاســفة اســلاميين آخرين وفلاســفة أوربيين فى العصر الحديث • فقــد تأثر اسبينوزا مثلا بالأفكار الاســلامية اما بطريق مباشر أو عن طريق ابن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤ م) ، وهذا بدوره كان متأثرا الى حد بعيــد بالفلســفة الاســلامية كما يتضح ذلك تمام الوضوح من كتابه (دلالة الحائرين)[٨٤] • واخوان الصفا ، تلك الجماعة التى تكونت فى البصرة فى القرن العاشر الميلادى واخرجت للناس موســوعة ضخمة تتناول كل فرع من فروع المعرفة الانسانية كانوا روادا لفلاســفة عصر التنوير فى فرنســا فى القرن الثامن عشر وما اخرجوه للناس من موســوعات ، وافكار ابن خلدون فى فلســفة التاريخ والفلســفة الاجتماعية أثمرت ثمارها فى أوروبا • ونكتفى الآن بهذه الأمثلة •

كلمة ختــامية :

بعــد ان بينا مكانة العقل فى الاســلام ودور الاســلام فى تطور الفكر الفلســفى نود فى ختام هذا البحث ان نؤكد على الملاحظتين التاليتين :

---

(٨٣) ارنست رينان : ابن رشــد والرشدية • ترجمة عادل زعيتر ص ١١٢ •• طبع عيسى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٧

(٨٤) فى الفلســفة الاسلامية للدكتور مدكور ج ١ ص ١١٧

١ ـ عندما يراد الحديث عن الاسلام فانه يجب التفريق بوضوح بين أمرين أولهما : الاسلام كدين وكتعاليم أثبتت وجودها وفعاليتها وتأثيرها على مر القرون ، وثانيهما الوضع الحضارى الراهن للمسلمين فى عالم اليوم .

فمبادىء الاسلام فى تطوير الفكر وحمايته لا تزال قائمة ومؤهلة للقيام بنفس الدور الذى قامت به فى السابق وذلك لان الاسلام ليس دينا جامدا ، ولكنه دين للحياة بشمولها ، يدعو الى التغيير والتطوير المستمر للحياة ، ولكنه فى الوقت نفسه يقرر ان المبادىء مهما كانت سامية فانها لا تستطيع ان تحقق نفسها الا عن طريق ارادة بشرية تعمل على تحقيقها . وهذا قانون قرآنى يقول : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »[٨٥] .

٢ ـ لم يعد هناك اليوم مجال لاستمرار الجدل العقيم بين الحضارات . فالأخطار التى تهدد البشرية اليوم ليست أخطارا تحيط بحضارة معينة وانما هى أخطار تحيط بالانسانية كلها . ولذلك يجب ان تعمل الحضارات المختلفة جاهدة على زيادة التفاهم فيما بينها . ونعتقد أنه قد آن الأوان لأن ينظر العلماء الأوربيون الى الاسلام وحضارته نظرة موضوعية وعادلة ، دون التأثر بعقد قديمة أو جديدة . وبهذه الطريقة وحدها يمكن اجراء حوار حضارى مثمر بين الحضارتين الاسلامية والأوربية .



---

(٨٥) الرعد ١١



الفصــل الثــانى

حــول مفهوم التصوف الاســلامى

- تمهيـــــد
- الانسان كائن متميز
- التصوف ظاهرة انسانية عامة
- التصوف وفكرة التاثير والتاثر
- صعوبة البحث فى التصوف
- اهم تعريفات التصوف

(أ) الاتجاه الأخلاقى

(ب) الاتجاه الزهدى

(جـ) الصوفى والعابد

- نشأة التصوف الاســلامى



● تمهيـــــد :

قبل أن ندخل فى صميم الحديث عن موضوع هـذا البحث الموجز[1] حول بعض المفاهيم الخاصـة بمعنى التصوف الاسـلامى ونشـأته وأهم تعريفاته ، نود أن تمهد لذلك بتوضيح بعض النقاط العامة التى يمكن أن تكون مدخلا أو مقدمة لهذا البحث والتى تتعلق بالوضعية الخاصة للانسان فى هـذا الوجود وما تشكله الحياة الروحية بالنسبة للانسان بصفة عامة ٠

❋ ❋ ❋

● الانسان كائن متميز :

فالانسان يعد كائنا فريدا فى هـذا الوجود ٠ وقد حاول الفلاسفة والمفكرون منذ القدم وضع تعريف يكون شاملا لكل خصائص الانسـان ٠ ولكنهم لم يتفقوا على تعريف معين ٠ فقد قيل ان الانسان حيوان ناطق ، وقيل انه مدنى بالطبع أو كائن اجتماعى ، وقيل انه حيوان أخلاقى ، وقيل انه حيوان متدين ، وقيل غير ذلك ٠

واذا كان قد شاع فى الفلسفة قديما وصف الانسان بانه حيوان ناطق بمعنى انه كائن عاقل فان وصف الانسان بانه حيوان أمر يدعو الى التأمل ٠ صحيح أن الانسان لديه كل علامات الحيوان ٠ فهو كائن حى يحس ويتغذى وينمو ويتحرك ، ولديه دوافع قوية مثل دافع حب البقاء والدافع الجنسى وغير ذلك من دوافع شانه فى ذلك شان غيره من الحيوانات ٠

ولكن الانسان من ناحية أخرى اذا قارناه بكثير من الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه فى أمور كثيرة ٠ فقوة ابصاره ضعيفة وحاسة الشم لديه محدودة جـدا ، وسمعه قاصر ٠ والأسلحة الطبيعية لديه كالمخالب تكاد أن

---

(١) القى هذا البحث فى ملتقى الفكر الاسلامى الحادى والعشرين الذى عقد فى ولاية معسكر بالجزائر فى نهاية شهر أغسطس ١٩٨٧ ٠

تكون معدومة تماما . وقوته الجسمية ليست بذى بال ، حيث لا يستطيع ان يمشى أو يسبح بسرعة تفوق بعض الحيوانات ، فضلا عن انه يولد عاريا بدون أن يكون له فراء أو شعر يحميه من الحر والبرد مثل الحيوانات . وطفولته طويلة فى الوقت الذى نجد فيه بعض الحيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من ولادتها .

وعلى الرغم من هذا القصور الظاهر لدى الانسان بالقياس الى الحيوان فانه قد أصبح سيد الطبيعة لأنه يملك سلاحا رهيبا هو سلاح العقل الذى به استطاع ان يغير شكل الحياة على الأرض ويخضع لارادته كل شىء تقريبا فى هذا الكون الذى سخره الله له . ومن هنا كان وصف الانسان بانه كائن عاقل او حيوان ناطق .

وهكذا يتضح لنا أن الانسان رغم انه من ناحية يمكن ان يوصف بأنه حيوان الا انه من ناحية أخرى ليس خاضعا تماما مثل الحيوان لقانون المنفعة البيولوجى . فالشىء الذى يعرفه الحيوان مرتبط دائما بغرض مادى . انه يرى ويفهم ما هو نافع له أو لنوعه فقط . أما الانسان فان لديه القدرة على الارتفاع والسمو فوق ذلك كله . فالذى يجعل الانسان انسانا ليس هو هذا الجانب المادى الحيوانى . ان هناك شيئا آخر هو الذى يجعله انسانا : انه العقل والروح والنفس(٢) .

أو بمعنى آخر هو ــ كما يقول الامام الغزالى ــ تلك الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم والتى بها يدرك حقائق الأمور . ويعبر الغزالى عن ذلك فى موضع آخر بقوله : انها تلك الغريزة التى « تسمى النور الالهى ... وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ... وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها . فمقتضى طبعها المعرفة والعلم »(٣) .

---

(٢) انظر : مدخل الى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ومن ترجمتنا ص ١١٣ وما بعدها ــ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ القاهرة .

(٣) احياء علوم الدين للغزالى ٩٤/١ ، ٢٩٩/٤ (طبع مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٣٩) .

● التصوف ظاهرة انسانية عامة :

وليس هناك فى هـذا الوجود كائن آخر غير الانسان شرفه الخالق سبحانه وتعالى بأن خلقه بيديه وسواه وعدله وجعله فى أحسن تقويم ، ثم أضاف الى ذلك كله ما هو أهم وهو تلك النفحة الالهية التى جعلت منه كائنا آخر مختلفا عن كل الكائنات الأخرى ٠

ومن أجل ذلك كان جديرا بأن يطلب الله من الملائكة أن يسجدوا له ٠ وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « **فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** »(٤) ٠

ومن هنا ـ من هـذه النفحة الروحية الالهية التى أضافها الله الى نفسه ـ أصبح للانسان حياة روحية تختلف عن حياته المـادية وان كانت مرتبطة بها ٠ وهـذه الحياة الروحية قدر مشترك لدى كل الناس منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة ٠ وقد تمثلت هـذه الحياة الروحية لدى الانسان فى صور مختلفة لدى كل الشعوب وفى كل العصور ٠

وهكذا يمكن القول بأن التصوف ـ بمعنى الحياة الروحية للانسان من حيث هو انسان ـ يعد ظاهرة انسانية عامة وفطرة بشرية موجودة فى كل العصـور وفى كل الأديان ، نجدها لدى أتباع الديانات السـماوية ، كما نجدها لدى أتباع الديانات الوضـعية مثل البـوذية ، أو لدى بعض الاتجاهات الفلسفية مثل الأفلاطونية الحديثة ٠ كما يمكن العثور على مثل هـذه الميول فى الهند القديمة ولدى الصينيين القدماء ٠

ومن أجل ذلك قيل ان التصوف يمثل نهرا روحيا عظيما يسير عبر جميع الأديان(٥) غير ان ما يميز هـذه الظاهرة فى الديانات السماوية هو الاتجاه المباشر نحو الله ٠

---

(٤) سورة الحجر ٢٩ ٠ وقد ورد هذا المعنى أيضا فى سورة (ص) ٧٢ وفى سورة السجدة ٩

(5) Annemarie Schimmel : Mystische Dimensionen des Islam, p. 3 (Aalen 1979) .

والتصوف بوجه عام يعتبر فلسفة حياة وطريقة معينة فى السلوك يتخذها الانسـان لتحقيق كماله الأخلاقى وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية . والتجربة الصوفية واحدة فى جوهرها والاختلاف بين صوفى وآخر يرجع فى أساسه الى تفسير التجربة ذاتها المتأثرة بالحضارة التى ينتمى اليها كل واحد منهما(٦) .

وتعتمد التجربة الصوفية بالدرجة الأولى على القلب ـ ومن هنـا يستعصى فهمها على العقل . ولكن هـذا لا يقلل من قيمتها واهميتها فى حياة الانسـان .

فلا ينبغى أن نعد القلب ـ كما يقول اقبال ـ قوة خاصة خفية . انه لا يعدو ان يكون اسلوبا من الأساليب البشرية لتحصيل معرفة الحقيقة دون اى تدخل من جانب الحس .

« وقد صاحبت الرياضة الدينية الانسانية منذ اقدم عصورها كما تدلنا على ذلك الكتب المنزلة والمؤلفات الصوفية للجنس البشرى .

فمن العسير اذن النظر الى هذه التجربة باعتبارها وهما من الأوهام .

وليس هناك ما يبرر تقبلنا للمستوى العادى للتجربة الانسانية باعتباره حقيقة واقعة ، ورفضنا لغيره من المستويات باعتبارها غامضة وعاطفية . فحقائق الرياضة الدينية شأنها شأن غيرها من حقائق التجربة الانسانية . وكل حقيقة من هذه الحقائق تتساوى مع غيرها فى قدرتها على التوصيل الى المعـرفة »(٧) .

واذا كان التصوف بصفة عامة يعد ـ كما سبق أن اشرنا ـ ظاهرة انسانية عامة فان مصطلح التصوف ـ كما تعرفه اللغة العربية ـ خاص بما

---

(٦) راجع : مدخل الى التصوف الاسلامى للدكتور/ابو الوفا الغنيمى التفتازانى ص ٣ ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٦ م .

(٧) تجديد التفكير الدينى فى الاسـلام للدكتور محمد اقبال ـ ترجمة عباس محمود ص ٢٣ وما بعدها القاهرة ١٩٦٨ .

يعرف بالحياة الروحية فى الاسلام • وهناك بطبيعة الحال نظير لهـذا المصطلح فى لغات الشعوب الأخرى •

* * *

● التصوف وفكرة التاثير والتاثر :

ونود هنا أن ننبه الى حقيقة يتجاهلها كثير من الباحثين فى التصوف الاسلامى ، وبخاصة من المؤلفين الأجانب المولعين بفكرة التأثير والتاثر • فهذه الفكرة ـ على الرغم من اهميتها فى بعض النواحى ـ تعد « من أخطر المزالق فى يد الباحث الذى يتصدى لدراسة التيارات الفكرية والنظريات الدينية » فالفكر البشرى ليس خاضعا مثل المادة الجامدة لقانون العلة والمعلول •

ولا يجوز الحكم بأن فلسفة من الفلسفات متاثرة بفلسفة أخري بناء على مجرد ظهور فكرة من الأفكار فى الفلسفة الأولى وظهور فكرة مشابهة لها فى الفلسفة الثانية الا اذا كانت هناك بالفعل دلائل واضحة مستمدة من الصلة التاريخية بينهما(٨) •

وهكذا فانه اذا كان التصـوف فطرة بشرية وظاهرة انسانية عامـة فليس هناك مبرر على الاطلاق لمحاولة البحث عن جذور التصوف الاسلامى فى غير الاسلام ، وذلك بالبحث عن هـذه الجذور فى التصوف الهندى أو الفارسى أو المسيحى أو غير ذلك من نزعات روحية لدى شعوب أخري • فلم تختص امة من الأمم دون غيرها بهذا الجانب الروحى الملتصق بالانسان اينما كان وأنى كان •

ولكن يمكن التمييز فى هـذا الصدد بين النزعة الصوفية التى هى نزعة عامة لدى جميع الشعوب وفى كل الأديان وبين الأشكال التى تتشكل فيها هـذه النزعة أو النظـريات التى تنطوى عليها • فهذه الأشـكال

---

(٨) راجع مقدمة د• ابو العلا عفيفى لكتاب « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » لنيكولسون • ص • ك القاهرة ١٩٥٦ •

او النظريات ـ التى هى لاحقة وليست سابقة للنزعة الصوفية ـ يمكن أن تتاثر بطريقة أو باخرى بما لدى الآخرين من نظريات وأشكال ٠

* * *

● صعوبة البحث فى التصوف :

والكتابة فى التصوف من الأمور الصعبة ، اذ أنه من الصعب على مراقب خارجى أن يفهم التصوف الا اذا كانت له تجربة فيه[٩] ٠

فالتصوف تجربة روحية ذاتية يعانيها المتصوف ، وهو نفسه لا يستطيع التعبير عنها ، واذا حاول أن يعبر عنها خانته الألفاظ ٠ ومن هنا كان قول الامام الغزالى فى هـذا الصدد :

وكـان ما كـان مما لسـت اذكـره   فظن خيرا ولا تسال عن الخبر[١٠]

وقد عبر عن ذلك أبو نصر السراج الطوسى (ت ٣٧٨ هـ ـ ٩٨٨ م) صاحب كتاب اللمع بقوله « ان الأوائل الذين تكلموا فى هـذه المسائل ٠٠ انما تكلموا بعـد قطع العـلائق واماتة النفوس بالمجـاهدات والرياضات والمنازلات والوجـد والاحتراق والمبادرة والاشـتياق الى قطع كل علاقة

---

(٩) عبرت عن هذه الصعوبة أيضا A.Schimmel خبيرة التصوف الاســلامى (op. cit., p. XVII) بقولها : « الكتابة عن التصوف الاســلامى تكاد أن تكون من الأمور المستحيلة ٠ فعند الخطوة الأولى تظهر للمرء سلسلة جبال مترامية أمام عينيه ٠ وكلما كان تتبع المرء للطريق أطول كلما بدا له الأمر اكثر صعوبة لبلوغ اى هدف على الاطلاق » ٠ وتشبه من يريد الكتابة عن التصوف بالعميان الذين طلب منهم وصف الفيل ـ فكل واحد منهم وصف الجزء الذى استطاع ان يلمسه بيديه ، ولكنهم جميعا عجزوا عن وصف الفيل ككل (op. cit., p. 3) ٠

(١٠) المنقذ من الضلال للغزالى ص ٦٥ ـ تحقيق د ٠ عبد الحـليم محمود ٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ ٠

قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين ، وقاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل »(١١) .

ولا يجوز التقليل من شأن هـذه الصعوبة ـ فدارس التصوف الذى ليست له فيه تجربة قد يذهب فى فهمه لأقوال الصوفية فهما لم يقصدوه أو يفسرها تفسيرا يتناقض مع ما يريدون التعبير عنه . فمن ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف كما يقولون .

ومع احساسنا بهذه الصعوبة الا أنه لا مناص لنا من محاولة الاقتراب من هـذه التجربة الصـوفية ومحاولة فهم أبعـادها ولا نقول الغوص فى أعماقهـا .

وهناك صعوبة أخرى أمام دارس التصوف تتمثل فى كثرة الاتجاهات الصوفية وتشعبها وتفرعها ، وكثرة التراث الصوفى سـواء منه المطبوع أو الذى لا يزال مخطوطا لم ير النور بعد .

* * *

● اهم تعريفات التصوف :

ليس هناك فى الواقع تعريف واحد متفق عليه لظاهرة التصوف بين الصوفية أو بين المشتغلين بدراسة التصوف . وهناك اكثر من مائة تعريف للتصوف تعبر كل منها فى الغالب عن ناحية خاصـة من نواحى التصوف أو تشير الى وجهة نظر خاصـة لصوفى معين أو الى حالة غالبة على صوفى فى وقت من الأوقات .

وهكذا تشـكل الحالة الراهنة الغالبة على المتصوف الأساس لفهم ما يقول . « فكل واحد منهم ـ كما يقول الطوسى ـ يتكلم من حيث وقته ، ويجيب من حيث حاله ، ويشير من حيث وجده »(١٢) .

---

(١١) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى ص ١٩/٢٠ . تحقيق د. عبد الحليم محمود وزميله ـ دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠ .

(١٢) اللمع ص ١٥٠ .

وفى هـذا المعنى يقول الامام الغزالى فى الاحياء : « فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط » . وفى موضع آخر يقول :

« وهـؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، لأنهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم »(١٣) .

وقبل أن نعرض لأهم تعريفات التصوف نود ان نشير هنا باختصار الى الخلاف الكبير والجدل الكثير الذى اثير حول الأصل الذى اشتقت منه كلمة صوفى أو تصوف :

فقد ذهب البعض الى ان كلمة صوفى مشتقة من الصفاء . وهـذا يعنى أن الصوفى يعد واحدا من خاصة أهل الله الذين طهر الله قلوبهم وصفاها من كدورات الحياة . وذهب فريق آخر الى القول بأن كلمة الصوفى مشتقة من الصف ، بمعنى أن الصوفى من حيث حياته الروحية فى الصف الأول لاتصاله بالله .

وذهب آخرون إلى القول بنسبة الصوفى الى الصفة . وهـذا يعنى أن أصل التصوف متصل بأهل الصفة . وأهل الصفة ـ كما هو معروف ـ اسم كان يطلق على بعض فقراء المسلمين فى صدر الاسلام الذين كانوا يأوون الى صفة بناها لهم الرسول عليه الصلاة والسلام خارج المسـجد بالمدينة نظرا لأنه لم تكن لهم بيوت يأوون إليها .

وقد رفض كثير من الباحثين هـذه الاشتقاقات لأن اللغـة العربية لا تجيزها ، وان كان التصوف فى حقيقة أمره يشتمل على كل هـذه المعانى المشـار اليها .

وذهب أبو الريحان البيرونى (ت ٤٤٨ هـ) قديما وبعض المستشرقين حديثا الى أن لفظ الصوفى مأخوذ من أصل يونانى هو كلمة (سوفيا) اليونانية التى تعنى الحكمة ـ وهـذا الرأى لا يستقيم لسبب بسيط وهو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة فى العربية قبل ترجمة الحكمة اليونانية الى العربيـة .

---

(١٣) احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٤٢ ، ٨٢ .

والرأى الذى عليه غالبية الباحثين هو أن كلمة صوفى منسوبة الى الصوف • وهـذا الاشتقاق لا يخالف القياس اللغوى وقد قال به أبو نصر السراج قديما حيث يقول : « نسبوا الى ظاهر اللباس ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام وشـعار المتنسكين »[١٤] وأبو نصر السراج هو صاحب اقدم كتاب عربى معروف فى التصوف وهو كتاب (اللمع) •

ويؤيد هـذه النسبة الى الصوف نصـوص عديدة من أقوال المؤلفين المسلمين ـ كما يقول المستشرق نولدكه أيضا ـ فالمسلمون فى القرنين الأولين للاسـلام كانوا يلبسون الصوف وبخاصة من كان منهم يسلك فى حياته طريق الزهد • وكانوا يقولون لبس فلان الصوف بمعنى تزهد ورغب عن الدنيا • فلما انتقل الزهد الى التصوف قالوا لبس فلان الصـوف بمعنى أصـبح صـوفيا[١٥] •

واذا كانت كلمة الصوفى ـ بناء على ذلك ـ تنتسب الى الملبس وهو مظهر وشكل فليس معنى ذلك ان التصوف مجرد مظاهر واشكال •

وأيا ما كان الأصل الذى اشتق منه مصطلح الصوفى والتصوف فان العبرة ليست فى المظهر ولكن فى المضمون الذى يشتمل عليه التصوف •

وهـذا ما يؤخذ من التعريفات العديدة للتصوف •

وأول تعريف للتصـوف الاسـلامى نجـده لدى معروف الكـرخى (ت ٢٠٠ هـ) حيث يقول : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما بأيدى الخلائق »[١٦] •

---

(١٤) اللمع ص ٤١ •

(١٥) يراجع : فى التصوف الاسلامى وتاريخه لنيكولسون ص ٦٦ وما بعدها • وكذلك : د• عبد الحليم محمود فى نشرته لكتاب المنقذ من الضلال ص ٨٥ وما بعدها •

(١٦) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٧٨ هامش ٢ تحقيق د/عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة بالقاهرة •

ولن يتسع المجال هنا بطبيعة الحال لاستعراض كل التعريفات التى قيلت وبيان مضامينها وما تشير اليه • ولكننا نكتفى فقط بالاشارة الى بعض الاتجاهات البارزة فى تعريفات التصوف •

(أ) الاتجاه الأخلاقى :

لا جدال فى آن السمو الأخلاقى وتصفية النفس من الشرور والآثام والارتفاع الى أعلى درجات الكمال الخلقى من الأمور الأساسية فى التصوف ، بل يجعلها البعض مرادفة للتصوف • ومن هنا نستطيع فهم هذه النوعية من التعريفات التى تركز على الجانب الخلقى •

فابو بكر الكتانى (ت ٣٢٢ هـ) يقول فى تعريفه للتصوف :

« التصوف خلق • فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء » •

وسئل أبو محمد الجريرى (ت ٣١١ هـ) عن التصوف فقال :

« الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى » •

ويحدد أبو الحسين النووى (ت ٢٩٥ هـ) التصوف بانه خلق فيقول : « ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق • ويعلل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله • ولن تستطيع ان تقبل على الاخلاق الالهية بعلم أو رسم » •

ويتضح من هذه النماذج من تعريفات التصوف تركيزها التام على الجانب الخلقى بوصفه اساس التصوف وثمرته فى الوقت نفسه • وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة لامراء فيها الا ان البعض يرى أن هذه التعريفات غير كافية فى الكشف عن حقيقة التصوف • فليس كل من بلغ الدرجة العليا فى الأخلاق الكريمة يعد صوفيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة •

ومن هنا لا يعد سقراط الذى كان داعية للفضيلة فى المجتمع اليونانى ومتمسكا بالمثل العليا ـ لا يعد صوفيا ، كما لا يعد الحسن البصرى صوفيا ، وقد كان مثلا صادقا للشعور الأخلاقى وللسلوك المثالى(١٧) •

---

(١٧) راجع د • عبد الحليم محمود فى : المنقذ من الضلال ص ٩٨ وما بعدها •

(ب) الاتجاه الزهدى :

واذا كان البعض قد سوى بين التصوف والخلق كما راينا ـ اعتمادا على اقوال بعض الصوفية ـ فهناك أيضا من يذهب الى تعريف التصوف بالزهد . وفى اقوال الصوفية انفسهم ما يؤيد ذلك .

فقد سئل سمنون (ت حوالى ٢٩٧ هـ) عن التصوف فقال : «الا تملك شيئا ولا يملكك شىء ؟ »[١٨] .

وقال ابو الحسين النورى : « الصوفى من لا يتعلق به شىء ولا يتعلق بشىء » .

وقال ابو الحسن الحصرى : التصوف قطع العلائق ورفض الخلائق واتصال بالحقائق .

وقال ابو على الروذبارى (ت ٣٢٢ هـ) : « الصوفى من لبس الصوف على الصفا واطعم نفسه طعام الجفا ونبذ الدنيا وراء القفا وسلك سبيل المصطفى » .

وقال رويم : « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار » .

ويقول سهل بن عبد الله التسترى : « التصوف قلة الطعام والسكون الى الله والفرار من الناس »[١٩] .

ولعل تعريف التصوف بالزهد هو الأمر الذى يتبادر الى ذهن كثير من الناس . فالمتصوف رجل زاهد فى الدنيا ، راغب عنها ، لا يتعلق قلبه بها . ولكن تعريف التصوف بالزهد لا يكفى أيضا للكشف عن حقيقته . فليس كل زاهد متصوفا وان كان كل متصوف زاهدا .

---

(١٨) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٥٤ هامش ١ .
(١٩) يراجع : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٠ وما بعدها .

هـذا فضلا عن ان الصوفية الذين يفهم من اقوالهم غلبة الاتجـاه الزهدى او الأخلاقى فى تعريف التصوف لهم ايضا من الأقوال ما يكشف عن جوانب اخرى للتصوف .

ومن ناحيـة اخرى نجد ان زهد غير الصوفى هدفه الاستمتاع فى الآخرة . اما الصوفى فانه يزهد فى الدنيا لأنه يتنزه عن أن يشغله شئ عن الله .

(جـ) الصـوفى والعابد :

ولا يكفى ايضا تعريف الصوفى بالعابد فالصوفى كثير العبادة . ومن هنا يخلط كثير من الناس بين الصوفى والعابد ، ولكن ليس كل عابد صوفيا فهناك فرق بين عبادة الصوفى وعبادة غير الصوفى .

فالصوفى يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لا طمعا فى جنة او خوفا من نار .

ومن هنا كان القول الذى ينسب الى رابعة العدوية :

« اللهم ان كنت اعبدك خوفا من نارك فالقنى فيها ، وان كنت اعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها ، وان كنت اعبدك لوجهك الكريم فلا تحرمنى من رؤيته » .

ولعل خلط الناس بين الصـوفى والعابد والزاهد هو الذى حدا بابن سينا الى تحـديد هذه المفاهيم حتى تتضح الفروق بينها حيث يقول فى كتابه الاشـارات :

١ ـ المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد .

٢ ـ المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخص باسـم العابد .

٣ ـ المنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره يخص باسم العارف ٠ والعارف عند ابن سينا هو الصوفى[٢٠] ٠

ومن هذا يتضح أن التصوف ليس فقط مجرد خلق أو زهد أو عبادة ، انه كل هذه المعانى مجتمعة ومعها شىء آخر ٠ انه العرفان بالله والاتصال به والقرب منه والشوق اليه والفناء فى حبه ٠

وهذا يتبين لنا من اقوال الصوفية أيضا :

فقد سئل ابو سعيد الخراز (ت ٢٦٨ هـ) عن التصوف فقال :

« الصوفى من صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نورا ومن حل فى عين اللذة بذكر الله » ٠

ويقول الجنيد : « التصوف ان تكون مع الله بلا علاقة » ويقول ايضا : « التصوف هو ان يميتك الحق عنك ويحييك به » ٠

ويقول ابو بكر الكتانى : « التصوف صفاء ومشاهدة » ٠

ويقول جعفر الخلدى (ت ٣٤٨ هـ) : « التصوف طرح النفس فى العبودية والخروج من البشرية والنظر الى الحق بالكلية » ٠

ويقول ابو الحسن الحصرى (ت ٣٧١ هـ) : « اذا وجد الصوفى ربه لم ينظر بعد ذلك الى شىء سواه »[٢١] ٠

فالصوفية هم ـ كما يقول الامام الغزالى ـ السالكون لطريق الله تعالى خاصة ٠ ويحدد الغزالى معالم طريقتهم بقوله :

اول شروطها : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ٠

ومفتاحها : استغراق القلب بالكلية بذكر الله ٠

وآخرها : الفناء بالكلية فى الله ٠

---

(٢٠) د٠ عبد الحليم محمود فى : المنقذ من الضلال ص ١٠٠ وما بعدها ٠

(٢١) راجع : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ٣٠ وما بعدها ٠

وهكذا ينتهى الأمر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ[٢٢] .

والعقل هو الذى يفصل فى ذلك ويبين وجه الصواب فى الأحوال التي تطرأ على العارفين . وفى ذلك يقول الغزالى فى كتابه مشكاة الأنوار عن العارفين بعد عروجهم الى سماء الحقيقة وتخيلهم الاتحاد أو الحلول أو ما شاكل ذلك :

« العارفون ــ بعد العروج الى سماء الحقيقة ــ اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود الا الواحد الحق . لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا ، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر انفسهم ايضا ، فلم يكن عندهم الا الله . فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم . فقال احدهم « انا الحق » وقال الآخر : سبحانى ما أعظم شأنى . وقال آخر : ما فى الجبة الا الله . وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى . فلما خف عنهم سكرهم وردوا الى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى ارضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرط عشقه : « انا من اهوى ومن اهوى انا »[٢٣] .

* * *

نشأة التصوف الاسلامى :

بعد القينا نظرة سريعة على اهم تعريفات التصوف ننتقل الآن الى الحديث عن النقطة الأخيرة فى هذا البحث حول نشاة التصوف الاسلامى .

---

(٢٢) المنقد من الضلال ص ٦٥

(٢٣) مشكاة الأنوار : تحقيق د . ابو العلا عفيفى ص ٥٧ ــ القاهرة ١٩٦٤

لقد قيل كلام كثير فى هذا المجال ، وحاول البعض الرجوع بالتصوف الاسلامى الى أصول غير اسلامية كما لو ان الأمر هو ان الاسلام يخلو من حياة روحية ، وانه فى حاجة الى عملية تلقيح من عناصر اخرى . كما ذهب البعض الى اعتبار التصوف بمثابة ثورة روحية فى الاسلام .

وقد سبق ان بينا ان الانسان بما هو انسان له حياة روحية يتميز بها عن كل ما عداه من المخلوقات . ولم يكن الاسلام كدين فى يوم من الايام فى حاجة الى ما يسمى بالثورة الروحية ولسنا نميل الى اطلاق لفظ الثورة على الدين الاسلامى رغم انه قد قلب بالفعل موازين الحياة التى كانت سائدة عند ظهوره راسا على عقب . فالاسلام دعوة ورسالة الهية اتت لخير البشرية فى دنياها وآخرتها .

ويميل كثير من الباحثين الاجانب الى تجريد العقلية الاسلامية وتجريد الدين الاسلامى نفسه من كل الصفات النبيلة او الجوانب الابداعية . فاذا راوا فيه شيئا من ذلك سارعوا بنسبتها الى اصول غير اسلامية .

وهذا ما حدث بالنسبة الى العوامل التى ادت الى نشأة التصوف الاسلامى .

فقد ذهب بعض الباحثين وبخاصة من المستشرقين الى القول بان التصوف الاسلامى فى صميمه يعد حركة بعيدة عن روح الاسلام اتت الى المسلمين من الفرس او من الهند وكانت بمثابة رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاة المسلمون على اهل تلك البلاد .

وذهب آخرون الى القول بان هذه الحركة استمدت أصولها من الرهبنة المسيحية التى وصلت الى المسلمين وهى تحمل فى ثناياها ما تحمل من الافكار الافلاطونية الحديثة والافكار الغنوصية والرواقية وغيرها من افكار كانت منتشرة فى مصر والشام عند الفتح الاسلامى .

وفى مقابل هذين الاتجاهين هناك الرأى الذى عليه غالبية المسلمين وهو الراى الذى يقول بأن التصوف الاسلامى قد نشأ من صميم الاسلام ذاته . وقد ذهب الى ما يقترب من هذا الراى بعض كبار المستشرقين أيضا من أمثال نيكولسون فى أخريات حياته وماسينيون .

فقد قام ماسينيون ببحث مصطلحات الصوفية وارجعها الى مصادرها الأولى ، وانتهى فى بحثه الى أن مصادر المصطلحات الصوفية أربعة .

أولها : القرآن وهو اهمها جميعا .

ثانيها : العلوم العربية الاسلامية كالحديث والفقه وغيرها .

وثالثها : مصطلحات المتكلمين الأوائل .

ورابعها : اللغة العلمية التى تكونت فى الشرق فى القرون الستة المسيحية الأولى من لغات اخرى كاليونانية والفارسية وغيرها واصبحت لغة العلم والفلسفة[٢٤] .

ومن هنا يمكن القول بأن التصوف الاسلامى قد نشأ نشأة اسلامية صرفة . فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فيهما من الاشارات العديدة والتوجيهات الكثيرة ما ساعد على تنمية هذا الشعور الفطرى بين كثير من المسلمين .

وقد مرت هذه النشأة بمرحلتين :

أولهما : مرحلة تستوعب القرنين الأولين وهى المرحلة التى عرفت بمرحلة الزهد . وأهم صفات وخصائص هذه المرحلة كان الاحساس الدينى العميق والشعور الغامر بالضعف الانسانى والخوف الشديد من الله والتفويض التام والخضوع لارادته .

---

(٢٤) فى التصوف الاسلامى وتاريخه : من مقدمة د . أبو العلا عفيفى ص (ى) . انظر أيضا ص (١٣) .

ولم تكن هذه المرحلة تعبر عن حركة منظمة داخل أماكن معينة مثل الزوايا او غيرها . ويعبر الحسن البصرى عن جوهر هذه المرحلة ـ وهو واحد من اعظم اقطابها ـ بقوله : « ليس الزهد طعاما ولا لباسا وانما هو الخشوع لله »(٢٥) .

ويمكن القول بأن الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) كان يمثل فى هذه المرحلة تيار الزهد القائم على أساس الخوف من الله بينما كانت رابعة العدوية (ت ١٨٥ هـ) تمثل فى القرن الثانى الهجرى تيار الزهد القائم على اساس حب الله تعالى(٢٦) .

ويصور لنا الامام القشيرى السمات التى تتميز بها هذه المرحلة والتطورات التى برزت فيها فيقول :

لم يتخذ افاضل المسلمين بعد رسول الله ﷺ لأنفسهم صفة يتصفون بها « سوى صحبة رسول الله ﷺ ، اذ لا فضيلة فوقها . فقيل لهم الصحابة . ولما ادركهم اهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة : التابعين . وراوا فى ذلك اشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم : اتباع التابعين . ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد .

ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا ـ فانفرد خواص اهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف . واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة »(٢٧) .

وهكذا تأخر اطلاق مصطلح الصوفى والتصوف بالمعنى الذى نعرفه اليوم حوالى قرنين من الزمان بعد ظهور الاسلام . فقد كان الاقبال على الدين والزهد فى الدنيا غالبا على المسلمين فى الصدر الأول للاسلام ،

---

(٢٥) المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها .

(٢٦) مدخل الى التصوف الاسلامى ص ١٠٤

(٢٧) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٦١ ، ٦٢

فلم يكونوا فى حاجة الى وصف يمتاز به أهل التقى والعكوف على الطاعات والانقطاع الى الله ٠

وقد طرا على تيار الزهد تحول واضح منذ أوائل القرن الثالث الهجرى بعد أن عرف الزهاد فى هذه المرحلة باسم الصوفية ، فقد اتجهوا الى الكلام عن معان ومفاهيم لم تكن معروفة من قبل ٠ تكلموا عن الأخلاق والنفس والسلوك والمقامات والاحوال والمعرفة والفناء والاتحاد والحلول ووضعوا لذلك القواعد النظرية ، كما اتخذوا رسوما عملية معينة لطريقتهم واصبحت لهم لغة رمزية خاصة لا يشاركهم فيها سواهم٠ واطلق الصوفية منذ ذلك العصر وما بعده تسميات خاصة على علمهم فوصفوه بعلم الباطن وبعلم الحقيقة وقد اكتمل التصوف الاسلامى واستوى على سوقه خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ٠

وقد ظهرت فى هذين القرنين ملامح تيارين مختلفين للتصوف أحدهما تيار سنى يلتزم رجاله بتعاليم الكتاب والسنة ، وتيار شبه فلسفى يميل رجاله الى الشطح والانطلاق من حال الفناء الى الاتحاد أو الحلول ٠ وقد اختفى تيار الشطح فى القرن الخامس الهجرى وثبتت دعائم التصوف السنى بفضل رجال من امثال القشيرى والامام الغزالى الذى كان له فضل كبير فى ترسيخ قواعده وازالة النفور الذى كان قائما ضد التصوف من جهات عديدة ٠ وبذلك بدا التصوف السنى ينتشر فى العالم الاسلامى ٠

وفى القرنين التاليين لعصر الغزالى ظهر تيار جديد فى التصوف الاسلامى وهو تيار التصوف الفلسفى ٠ وقد مزج رجاله أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية واستخدموا فى التعبير عن ذلك مصطلحات فلسفية استمدوها من مصادر عديدة ٠ وهذا اللون من التصوف قد تاثر بالمذاهب والفلسفات الأجنبية[٢٨] .

---

(٢٨) راجع : مدخل الى التصوف الاسلامى ص ١١١ وما بعدها ، وص ٢٢٧

ويشير ابن خلدون فى مقدمته الى هذا اللون من التصوف فيقول :

« ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك . فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة ... وملأوا الصحف منه مثل الهروى فى كتاب المقامات له ، وغيره وتبعهم ابن العربى وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصائدهم »[29] .

وقد تحدث ابن خلدون فى هذا الصدد عن الموضوعات الأساسية التى اهتم بها أقطاب التصوف الفلسفى واشار الى بعض العناصر التى كان لها تاثير على تفكيرهم فى هذا الصدد مما لا مجال لتفصيل القول فيه فى هذا البحث القصير .

ولكن ظهور التصوف الفلسفى فى القرنين السادس والسابع الهجريين لم يزحزح التصوف السنى عن مكانه أو يحل محله . فقد انتشر التصوف السنى المبنى على الكتاب والسنة بتاثير الغزالى انتشارا واسعا فى العالم الاسلامى وازدهر على أيدى عدد من كبار شيوخ الطرق الصوفية .

ومنذ ذلك الوقت دخل التصوف السنى مرحلة عملية لا تزال مستمرة حتى اليوم واصبح يمثل بالنسبة لملايين كثيرة فى العالم الاسلامى فلسفة حياة . وصار جمعيا له نظم وقواعد ورسوم خاصة بعد ان كان قبل ذلك من حظ افراد يظهرون بين حين وآخر هنا وهناك فى العالم الاسلامى دون ان يكون بينهم رباط يجمع شملهم ويوحد جمعهم[30] .

* * *

---

(٢٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣ . دار الفكر (بدون تاريخ) .

(٣٠) مدخل الى التصوف الاسلامى ص ٢٨٥ وما بعدها .



الفصل الثالث

حـــول مفهـوم القيـــم

١ ـ تمهيـــــد •

٢ ـ مفهوم القيمـــة •

٣ ـ مصـــدر القيم •

٤ ـ التقييم والقيم •

٥ ـ اصناف القيم •

٦ ـ سلم القيم والخير الاقصى •

٧ ـ خاتمـــة •


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ تمهيـــــد :

لقد سعدت حقا بالدعوة الى المشاركة فى هذا الملتقى الثقافى المبارك(*) ، وذلك لأنه كان يجول بخاطرى منذ سنوات عديدة سؤال لا يجد له جوابا .

فنحن كثيرا ما نهتم فى عالمنا العربى الاسلامى بوضع الخطط التنموية الاقتصادية أو الاجتماعية أو حتى التربوية ولا نجد مكانا لخطط مماثلة للتنمية الروحية أو الأخلاقية فى حين أن هذه هى الأساس لغيرها من الخطط وهى الركيزة والضمان لانجاح أى خطط تنموية .

وكنت أسائل نفسى :

متى نتنبه ، بوصفنا مسلمين ، الى ذلك ونهتم به ونوجه عنايتنا للتركيز عليه ؟

ولعل هذه هى المرة الأولى ـ فى مبلغ علمى ـ التى يتم فيها عقد مؤتمر كبير يكون التركيز فيه على هذا الربط السديد بين القيم الاسلامية والتنمية .

وتلك خطوة فى الاتجاه الصحيح فى المسيرة الحضارية لعالمنا العربى الاسلامى .

اما عن محاضرتى فستكون محاضرة تمهيدية تقتصر فقط على توضيح مفهوم القيم .



(*) القيت هذه المحاضرة فى الملتقى الدولى الذى اقامته بلدية قسنطنية بالجزائر حول « اثر القيم الاسلامية فى التنمية » فى منتصف شهر ابريل ١٩٨٨

ومفهوم القيم يعد من المفاهيم الشائعة فى حياتنا اليومية ، فكثيرا ما نتحدث عن القيم ونشكو فى احيان كثيرة من انهيار القيم ، ونعبر عن الحاجة الملحة للانسان المعاصر الى الاحساس بالقيم بعد أن انتشرت السطحية التى نأخذ بها الأمور ، والتى ادت بنا الى عدم ادراك القيم الحقيقية للأشياء والأشخاص • ويرتبط بضآلة الاحساس بالقيم ظواهر كثيرة مثل التخلف والانحلال والياس والتشاؤم ، وفى المقابل يرتبط بازدياد الاحساس بالقيم مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط •

وعندما تقوم دعوة للاصلاح والنهوض نراها تطالب بالأخذ بقيم جديدة تحل محل قيم بالية عفا عليها الزمن ، ولا يخلو حديثنا عن القيم فى غالب الأحيان من خلط بين المفاهيم ، وخلط بين القيم الحقيقية والقيم الزائفة أو بين القيم الثابتة والقيم المتغيرة •

ونحن جميعا فى حياتنا العملية لا نقف ازاء ما نراه ونحسه حولنا من أشياء وأشخاص موقف المتفرج ، بل نحن نرى ونحكم ونقيم ، ونحس الواقع الذى حولنا على انه جميل أو قبيح ، خير أو شر ، مرغوب فيه أو مكروه ، شريف أو وضيع ، مقدس أو مبتذل • الخ •

وهكذا نرى أن حياتنا كلها فى واقع الأمر محددة بالقيم والتقييم ولا تخلو الحياة اليومية لأى انسان من القيم والحكم على الأشياء والأشخاص الذين نتعامل معهم ، وينطبق ذلك حتى على الأطفال الذين يحكمون أيضا على الناس والأشياء بالخير أو الشر أو الجمال أو القبح •• الخ •

وهذا يوضح لنا ان التقييم أى الحكم على الناس والأشياء يقتضى ان تكون هناك معايير أو مقاييس او مبادىء يرجع اليها الجميع عندما يحكمون ويقيمون ، وهذه المعايير أو المقاييس او المبادىء في هذا الصدد هى ما نسميه بالقيم •

وهكذا نجد أن موضوع القيم من الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة

بالنسبة للحياة الانسانية . وقد كانت محاولة توضيح هذا الجانب من حياتنا ـ على الدوام ـ جزءا أساسيا من كل فلسفة[1] .

٢ ـ مفهوم القيمة :

وبادىء ذى بدء نلاحظ أن مفهوم القيمة يستخدم فى العادة فى ميدان الاقتصاد ويقصد به قيمة التبادل بمعنى السعر المقدر للسلعة . وقد جاء فى القاموس المحيط فى هذا الصدد أن القيمة بالكسر واحدة القيم وماله قيمة ، اذا لم يدم على شىء . ومنه قومت السلعة أى قدرت ثمنها . ولكن استعمال هذا المفهوم لا يقتصر فقط على المجال الاقتصادى الذى تعد القيمة فيه شيئا ماديا ، بل يستخدم كثيرا فى المجالات غير المادية للتعبير عن قيم أخرى معنوية .

وقد حاول العديد من الفلاسفة تحديد مفهوم القيمة . فذهب بعض الفلاسفة الى القول بأن قيمة الشىء هى « قدرته على اثارة الرغبة ، وأن القيمة تتناسب مع قوة الرغبة » جاعلا هذا التعريف شاملا لكل من القيم الاقتصادية والقيم المعنويه . ويذهب بعض المفكرين الى القول بتعريفات أخرى للقيمة مثل : « القيمة صفة الشىء المعتبر أنه قابل للرغبة فيه » أو : « ما هو جدير بأن يطلب »[2] .

ويمكن بصفة عامة تعريف القيمة بالمعنى الفلسفى من جهتين :

١ ـ من وجهة النظر الذاتية : وتعنى القيمة تلك الصفة التى يخلعها العقل على موجود ما ـ سواء كان شخصا أو شيئا ـ اذا ما كان هذا الموجود بالفعل مرادا أو مرغوبا أو مقدرا من انسان أو جماعة معينة من الناس ، أى اذا ما كان معترفا به بوصفه هدفا لرغبة المرء الخاصة أو لرغبة أجنبية . فالقيمة هنا تعنى درجة التقدير أو الرغبة

---

(١) راجع كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق . ص ١٣٥ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٣

(٢) الأخلاق النظرية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٩٠

لموجود ما • والقيمة بهذا المعنى تعنى الاهتمام بشىء أو استحسانه أو الميل اليه والرغبة فيه ونحو هذا مما يوحى بأن القيمة ذات طابع شخصى ذاتى •

٢ ـ من وجهة النظر الموضوعية : القيمة هى ما فى الموجود نفسه ـ سواء كان شخصا أو شيئا ـ من صفة عينية كامنة فيه أو ما يشتمل عليه من سبب لتقديره تقديرا له ما يبرره • فالقيمة هى اذن هذا الذى يجعل من الممكن ان يصبح هذا الشىء أو الشخص أو الفعل أو القول هدفا لارادة صحيحة وليس فقط لرغبة فعلية[٣] • وبهذا المعنى تطلب القيمة لذاتها •

وهذا يعنى أن ماهية القيم تقوم فى اعتبارها الموضوعى الذى يتضمن فى الوقت نفسه التزاما تستمد منه الذات التى تدرك القيمة واجبها الذى ينبغى أن تفعله لكى تحقق هذه القيمة التى لها اعتبارها الموضوعى فى ذاتها • وهذا يعنى أيضا أن يكون تفكير المرء وحكمه وارادته وسلوكه طبقا لهذه القيمة •

وهكذا فان قيمة الصدق ـ على سبيل المثال ـ تعد قيمة لها صحتها الموضوعية التى تتضمن فى الوقت نفسه التزاما واجبيا • فكل فرد ينبغى أن يكون صادقا • والصدق الموضوعى العام يتمثل فى انه لا يمكن ان يكون هناك انسان لديه القدرة على ادراك ماهية هذه القيمة ادراكا حقيقيا يتجه فى شعوره وفى حكمه اتجاها غير اخلاقى •

وكل ما يدخل تحت تقييمنا وحكمنا من أشياء واشخاص وسلوكيات يرتبط بشكل من الأشكال بمجموعة من القيم ويقاس عليها ، وتشكل مجموعة القيم هذه ما يسمى بمملكة القيم • وهذه القيم تسرى بصفة عامة لأنها ملزمة لكل كائن عاقل لديه القدرة على ادراكها كما هو الحال فى

---

(٣) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ١٣٦ وما بعدها • وراجع أيضا المعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية •

قانونية الرياضات التى تسرى بالنسبة للجميع بشكل واحـد لمن يتأملها ويفهمها ٠

ومملكة القيم ذاتها لا متناهية ٠ وهى بالنسبة لنا ـ على الأقل ـ ليست مغلقة بمعنى ان هناك امكانية مستمرة لاكتشـاف قيم جديدة ٠ ومن خلال هذه الأبعاد الكثيرة للقيم وتنوعها ومدى سموها وقوتها تنشـأ مشكلة هامة تعرف بمشكلة تدرج القيم[٤] ٠

* * *

٣ ـ مصدر القيم :

وقبل ان نشرع فى الحديث عن اصناف القيم وتدرجها وطبيعتهـا لابد لنا من الحديث اولا عن نقطة أساسية فى هذا الصدد وهى تلك النقطة التى تتعلق بمصـدر القيم :

هل القيم من صنع الانسـان خاضـعة لظروف الزمان والمكان ؟ ام انها تصدر عن العقـل الانســانى الذى هو قسـمة مشتركة بين كل الناس وبالتالى لا تختلف من عصر الى عصر ولا من مكان الى مكان ؟

ام ان القيم من صنع الله الذى خلق الانســان وهو وحده أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ؟

هذه اسئلة هامـة لابد من الاجابة عنها قبـل الدخول فى تفاصيل اخرى لان غيرها مترتب عليها ٠

لقـد عرف تاريخ الفلسـفة فى القديم والحديث من يذهب الى القول بان القيم جميعها من صنع الانسـان وانها امور خاضـعة لظروف الزمان والمكان ومن هنـا فهى متغيرة لا ثبـات لها ولا رسـوخ وهى نسبية ٠

فالناس يتعودون على اتباع قيم معينـة لأنها فى الغالب نافعـة

---

(4) J. Hoffmeister :Wôrterbuch der philosophischen Begriffe, Felix Meiner 1955.

ومفيـدة فاذا حـدث ان تغير الوضـع وأصبح اتباع هـذه القيم غير نافع وغير مفيـد فان القيم حينئذ تتغير ٠

وقـد كان السوفسـطائيون قديما هم الرواد الأوائل الذين وضعوا الأسـاس للنسـبية الأخلاقيـة التى تنكر وجود أية معايير اخلاقية مطلقـة وكانوا يزعمون ان الطبيعة الانسـانية شـهوة وهوى وأن القوانين التى تعبر عن قيم السلوك ومعاييره قد وضعها المشرعون لقهر الطبيعة وأنها متغيرة بتغير الأعراف والظروف فهى أمور نسبية غير واجبـة الاحترام لذاتها ٠ ومن حق الرجل القوى أن يسـتخف بها او ينسخها ويجرى مع هـوى الطبيعة ٠

ولكن الفيلسـوف اليونانى الشهير سقراط قـد رفض هـذا الاتجاه النسبى الذى جعل من الانسان الفرد مقياسا للخير والشر والحق والباطل وقرر هذا الفيلسـوف أن الانسـان « روح وعقل يسـيطر على الحس ويدبره وان القوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقـة ، وهى صـورة من قوانين غير مكتوبة رسـمها الآلهة فى قلوب البشر ٠ فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الالهى »(٥) ٠

ومن وجهة النظر الاسـلامية نقول :

ان الكون الذى نعيش فيـه بسمـائه وأرضـه وما بينهما من كائنات يسـير منـذ كان وفق نظام متناسـق أبدعه الخالق وحسـب قوانين لا تتخلف ٠ ومن هنـا كان هـذا النظام البـديع والمتناسـق الرائع فى كل نواحى هـذا الكون ٠ وحيث ان الانسـان جزء من هذا الكون فان الله سبحانه وتعالى لم يتركه عبثا ، بل شرع له من المبادىء والقيم ما يضبط به سـلوكه ويدبر حيـاته وينظم علاقاته ويحميه من تدمير ذاته أو غيره ٠ فاذا التزم الانسـان بذلك كله كان مثله فى ذلك مثل الكون كله فى انتظام سيره واستقامة شئونه ٠

---

(٥) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٥٣

ولكن الله سبحانة الذى كرم الانسان وفضله على سائر المخلوقات لم يرد ان يجعله مثل بقية الكائنات خاضعا لقانون التسخير ، بل شرفه وجعله خليفة له فى الأرض وميزه بالعقل والتفكير واختصه بالتكليف والمسئولية ووهبه ارادة يقرر من خلالها الالتزام بالقيم والمثل والمبادىء الالهية او عدم الالتزام • وبذلك يتميز الخبيث من الطيب والصالح من الطالح والتقى من الفاسد والشقى من السعيد • وقد جاءت الرسالات السماوية لتكشف للناس عن القوانين الأخلاقية والقيم الانسانية شيئا فشيئا الى ان جاءت الرسالة الخاتمة وهى رسالة الاسلام • وقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٦) •

والديانات السماوية الصحيحة كلها تجعل الايمان بالله الواحد اساس ايمان المؤمنين • وهذا يقتضى أن ما يصدر عن الله من أوامر ونواه تظل على الدوام متسقة مع ذاتها وخالية من التناقض وتتصف بالشمولية وتنطبق على الناس جميعا فى كل زمان ومكان • ولما كانت القوانين او القيم الاخلاقية صادرة عن الله فانها تكون مطلقة • وعلى ذلك فان تباين المعايير والقيم الذى نلاحظه من مكان الى مكان ومن عصر الى عصر لا يمكن ان يكون راجعا الا الى الجهل بارادة الله • ولو كان الناس جميعا يعرفون الارادة الالهية لكان لهم جميعا قانون اخلاقى واحد •

وهكذا يمكن القول بان القيم لها وجود موضوعى خارج أذهاننا بوصفها جزءا من الكون • وفى هذا الصدد يمكن تشبيهها بقانون الجاذبية • فكلاهما ملزمان ومتساويان فى الشمول ودوام التأثير • وكما انه من الحمق ان نعتقد أن قوة الجاذبية ليست لها الا قيمة ذهنية أو ذاتية فان من الحمق ايضا بنفس المقدار ان يخلق كل فرد « خيره » أو «قيمه» بناء على مزاجه الخاص • وكما ان الجاذبية كانت موجودة قبل أن

---

(٦) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد •

يكتشف نيوتن قوانينها وستظل فى الكون الى نهاية مصيره فكذلك القوانين الأخلاقية والقيم الانســانية بصفة عامة[٧] .

واذا كان الايمان بالله يعــد هو أســاس ايمان المؤمنين فانه يتفرع عنــه ويترتب عليه العديد من قيم الســلوك وقوانين الأخـــلاق وآداب التعامل . وقــد جاء فى حديث عن النبى ﷺ أنه قال :

« الايمان بضع وسبعون شــعبة افضـــلها لا اله الا الله وادناها اماطــة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان »[٨] .

ومفهوم القيم الدنيا والقيم العليا فى هذا الصــدد لا يعنى أن القيم الدنيــا مرفوضــة فهى قيم دنيا لا من حيث قيمتها ولكن من حيث أولويتها فى سلم القيم . ومن هنا كانت القيم المادية المشروعة داخلة فى الاطار العام للقيم ، فقــد أحل الله لعباده الطيبات من الرزق واحــل لهم المتــع المــادية المشروعة ، بل وجعــل لهم فى التمتع بها صدقة . فقــد روى الامام احمــد فى مسنده ان النبى ﷺ قال :

« ... ان بكل تسبيحة صــدقة وبكل تحميدة صــدقة وفى بضــع احدكم صــدقة قالوا : يا رسول الله أياتى احدنا شهوته يكون له فيها اجر ؟ قال : ارايتم لو وضعها فى الحرام اكان عليها فيها وزر ؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له فيها اجر »[٩] .

* * *

٤ ــ التقييم والقيم :

لقد اتضح لنــا اذن ان هناك من يذهب الى القول بنسبية القيــم جميعها وهناك من يذهب الى القول بأن هنــاك قيما اســاسية مطلقــة

(٧) راجع : هنترميد : الفلســفة . انواعها ومشكلاتها ص ٢٦٦ وما بعدها ــ ترجمة د . فؤاد زكريا ــ دار نهضة مصر ١٩٧٥

(٨) راجع : سنن النسائى . باب ذكر شعب الايمان .

(٩) مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٦٧ ــ طبعة اسطنبول للكتب الستة ــ مجلد ٢٣ .

وثابتة لا تتغير ، والديانات السماوية الصحيحة تنطلق من منطلق ثبات القيم الأساسية وعدم تغيرها ، والمذاهب العقلية تأخذ بذلك ايضا . وهناك نوع من الخلط لدى القائلين بنسبيه القيم نود ان ننبه اليه . فالقيم هى المعايير ، اما التقييم فهو الحكم الذى نصدره على الناس والأشياء . وهذا الحكم قد يختلف من شخص الى آخر لأنه يعبر عن وجهة نظره ومن هنا نجد أن التقييم يعد امرا نسبيا ومتغيرا وهذا امر لا ينكره العقليون ، اما القيم ذاتها فهى ثابتة وغير متغيرة بوصفها معايير يحتكم اليها ويقاس عليها ، وهذا أمر واضح بذاته لا يحتاج الى برهان . ولا يطعن فى هذا الموقف ـ فى نظر العقليين ـ وجود اناس ينكرون مثل هذه القيم الثابتة غير المتغيرة ، فكما يوجد هناك اناس مصابون بعمى الألوان يوجد هناك ايضا اناس مصابون بعمى القيم .

ومن ذلك يتضح ان رأى المفكرين الوضعيين والماديين ومن على شاكلتهم يقوم على الخلط بين التقييم والقيم ، اى الخلط بين نظرتنا العقلية للقيم وانفعالاتنا بها وبين القيم ذاتها . والتقييم والقيم ـ كما رأينا ـ شيئان مختلفان تماما .

ومما يؤخذ ايضا على هذه النسبية فى مجال القيم انه يترتب عليها ما يأتى :

(ا) استحالة وجود معيار للحكم على قانون اخلاقى معين بأنه افضل او اسوأ من قانون اخلاقى آخر . فلن تكون هناك عندئذ اسس سليمة لتقويم السلوك فيما عدا اتفاقه مع العرف المحلى او القومى . والعرف فى حد ذاته لا يصلح ان يكون معيارا اخلاقيا حقيقيا .

(ب) يستحيل وجود تقدم اخلاقى فى ظل معيار نسبى . فكيف نقول ان الغاء الرق او ابطال واد البنات كان خيرا او ان انهاء الحروب سيكون خيرا ؟

(جـ) لن يكون هناك مبرر لقيام شخص بمحاولة ان يحيا حياة اخلاقية « افضل » . فالسؤال عن هذه الأفضلية : « افضل » من

ماذا ؟ لن يكون له معنى · ولن يكون هنـاك ايضـا معنى لمفاهيم الأفضل والأسوأ والأعلى والأدنى والصواب والخطأ اذا لم يكن هناك معيـــار ثابت وشـامل تقاس عليه كل هذه المفاهيم (١٠) ·

❋ ❋ ❋

٥ ـ اصـناف القيم :

واذا كنـا قد اكدنا على ثبات القيم الأسـاسية فان من الضرورى التأكيد ايضـا على ان هـذه القيم الثابتة تعـد خيرا فى ذاتها وتطلب ايضا لذاتها · ويجب التمييز بينها وبين غيرها من القيم الظاهرية التى لا تطلب لذاتها بل تعـد وسـيلة لغيرها ومن هنا لا يمكن أن تشترك مع النوع الأول من القيم فى صفة الثبات والرسـوخ ·

ولكى تتضح أمامنا صـورة هذا التمييز بين هذين النوعين نشير الى ان هناك صنفين من القيم يندرج تحتهما كل انواع القيم الأخرى مادية كانت ام معنوية وهما :

(ا) قيم مطلقة لا تحدها حدود زمانية او مكانية · وهذا الصنف من القيم يطلب لذاته بوصفه غاية لا وسيلة · ويطلق عليه اسـم القيـم الكامنة او القيم الباطنية فهى خير فى ذاتها وبذاتها ولذاتها · وبالتعبير الدينى تطلب مثل هـذه القيم لوجه الله لا لشىء آخر وراءها وذلك على سبيل المثال ما تعبر عنـه الآية الكريمة :

« انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »(١١) ·

كما تربنا آية اخرى مدى القيمة المطلقة التى تعم البشرية كلها من وراء فعل الخير ، وفى المقابل النظر الى عكس هذه القيمة بوصفـه جرما فى حق الانسـانية جمعاء · وهذا المعنى هو الذى نقرؤه فى الآية الكريمة :

---

(١٠) الفلسفة ـ انواعها ومشكلاتها (مرجع سـابق) ص ٢٧٢ وما بعدها ·

(١١) سورة الانسـان آية ٩

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (١٢) • فهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى انسان مع البشرية كلها لأن الانسان من حيث هو انسان يعد خليفة لله فى الأرض •

ويدخل تحت هذا النوع من القيم ما ينشده الناس من السعادة الحقيقية لا السعادة الزائفة الوقتية •

(ب) أما النوع الثانى فهو قيم نسبية يطلبها الناس بوصفها وسائل لتحقيق غايات اخرى وهذه القيم يطلق عليها اسم القيم الوسيلية أو القيم الخارجية • فقيمة السيارة مثلا مرهونة بما تؤديه من خدمات ، والمال لا تكون له قيمة الا من حيث هو وسيلة لكثير من الأمور المرغوب فيها فى الحياة •

والتمييز بين هذين الصنفين من القيم يعد أمرا بالغ الأهمية حتى لا تختلط المفاهيم فى الأذهان • فالحياة الخيرة هى التى تؤدى الى أقصى حد ممكن من الخير الكامن ، وفى الوقت نفسه تنظم القيم الوسيلية على اساس انها تخدم القيم الكامنة(١٣) •

ومما سبق يتضح لنا ان هناك قيما تتعلق بالماديات وأخرى تتعلق بالمعنويات • والقيم المادية هى فى الغالب قيم وسيلية • أما القيم المعنوية فيمكن تقسيمها الى قيم عقلية وجمالية وخلقية ودينية • ويطلق البعض على القيم العقلية والجمالية اسم قيم الانسان تجاه العالم على اعتبار ان القيم العقلية تتعلق بمعرفة الاشياء وتفسير الظواهر ومعناها بالنسبة لنا ، وان القيم الجمالية تقوم فى اللذة النزيهة التى يزودنا بها المنظر المحض للأشياء • كما يطلق هذا البعض ايضا على القيم الخلقية والدينية اسم قيم الانسان فوق العالم على اعتبار ان القيم الخلقية تتضمن الفعل فى الواقع الموضوعى وتحويل العالم المادى الى ما ينبغى ان يكون ، وان القيم

---

(١٢) سورة المائدة آية ٣٢

(١٣) المرجع السابق ص ٢٧٤ وما بعدها •

الدينية تهدف الى التقدم الخالص للشعور فى علاقته بالله[١٤] .

وقد حرص الاسلام على ان تكون مجموعة القيم كلهـا متجهة فى سلوك الانسان كله نحو الله وحده . فاذا كانت العبادة قيمة فانه لا يجوز قصر مفهوم هـذه القيمة على المعنى الضيق الذى يعنى آداء الشعائر الدينية المعروفة . فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية ـ دينيا كان أم دنيويا ـ يعد عبادة طالمـا قصد به المرء وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لأمر الله تعالى باصـلاح الأرض ومنع الفسـاد . وهـذا ما تعبر عنـه الآية الكريمـة :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »[١٥] .

ومن هـذا المنطلق أيضا نجد الاسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة بعد الانتهاء من الصلاة تقديرا من الاسلام لقيمة العمل الذى لا تقوم الحياة الا به وفى ذلك يقول القـرآن الكريم :

«فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله»[١٦] .

***

٦ ـ سلم القيم والخير الأقصى :

مما تقدم يتضح لنا ان القيم كلهـا رغم انها مطلوبة الا انها ليست فى درجة واحدة من حيث أولويتها وتدرجها فى سـلم القيم . فبعضها يخدم البعض الآخر وهـذا يشير الى ترتيب القيم فى سلم متدرج ، ولا بد لهذا السـلم من ان يكون هناك فى قمته قيمة عليا . وقد اشتهرت هـذه القيمة العليا فى الفلسفة بانها الخير الأسمى أو الأقصى . ومن هذا

---

(١٤) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق . ص ١٣٨ .
(١٥) سورة الأنعام : آية ١٦٢ .
(١٦) سورة الجمعة : آية ١٠ .

يتوقف تحقيق الحياة الخيرة الى حد معين على تنظيم كل القيم الأخرى فى صلتها بهذا الخير الأخلاقى الأقصى ٠

وهـذا الخير الأقصى له شروط او خصائص تبين لنا ما ينبغى أن يكون عليه بوصفه اقصى خير وأرفع هدف للحيـاة ٠ وهـذه الخصائص تتمثل فى عدة أمور هى :

(أ) ينبغى ان يكون خيرا كامنا لا شك فيه ، أى خيرا فى ذاتـه وليس وسـيلة لغيره ٠

(ب) ينبغى أن يكون شـاملا بحيث تندرج تحته كل أوجه نشاطنا بوصفها وسـائل لتحقيقه ٠

(جـ) ينبغى أن يكون ممكن التحقيق ، ولو بصورة جزئية ، حتى يكون وثيق الصلة بالحياة البشرية ٠ ويكفى أن يشعر الناس بامكان تحقيقه بما يكفى لتبرير تكريس الحياة من اجل بلوغ هـذا الهدف ٠ ومن ناحية اخرى ينبغى ان يكون من الممكن بناء خطة للحياة حول هـذا الهدف الذى نجعله الخير الاقصى ٠

وقد اختلفت اراء الفلاسفة منذ القدم حول ما يسمى بالخير الأقصى وقد تمثل ذلك لدى ارسطو فى « الحكمة » التى فيها السعادة الحقيقية للانسان ٠ فخير الانسان وسعادته فى ان يزاول حياة التأمل والتعقل على اكمل وجه وبذلك يصير انسانا بمعنى الكلمة ٠

وهكذا ربط ارسطو بين السعادة والحكمة مؤكدا أن « الحكمة » هى اسمى الفضائل ، غير ان ما يؤخذ على هـذا الراى هو أن السعادة ستكون وقفا فقط على طبقة معينة من الواصلين العارفين ٠

ولكن حجة الاسلام الغزالى له رأى آخر فى مفهوم الخير الأعلى ٠ فهو وان كان يتفق مع ارسطو فى أن السعادة تتمثل فى الخير الأعلى الا ان ما يقصده بذلك يختلف عما كان يقصده ارسطو ٠

ولكى يوضح لنا الامام الغزالى وجهة نظره يحدثنا أولا عن الخيرات الكثيرة فى هـذه الحياة ويرجع بها الى أربعة أنواع هى :

(أ) خيرات النفس : وهى أمهات الفضائل الأربع التى هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ٠

(ب) خيرات البدن أو فضائله : وهى كذلك أربع تتمثل فى الصحة والقوة والجمال وطول العمر ٠

(جـ) الخيرات الخارجية : وتتمثل أيضا فى أربعة أمور هى المال والأهل والعز وكرم العشيرة ٠

(د) الخيرات أو الفضائل التوفيقية : وهى أربعة كذلك : هداية الله ورشده وتسديده وتأييده[(١٧)] ٠

فالغزالى ـ كما نرى ـ جعل أنواع خيرات هذه الحياة أربعا ، وجعل كل نوع منها أربع فضائل ، فتكون ضروب السعادات هذه ستة عشر ضربا ٠ ولا مدخل للاجتهاد فى نظر الغزالى فى اكتساب شىء منها الا الفضائل النفسية التى تكون بمجاهدة المرء نفسه ، وردها الى التوسط والاعتدال ٠

وهذه الخيرات التى لا بد من بعضها للتوصل الى البعض الآخر ، أو ليبلغ ذلك البعض كماله ، ليس شىء منها هو الخير الأعلى ، اى ليس شىء منها هو السعادة الحقيقية فى راى الغزالى ، وان كانت السعادة فى حاجة اليها كلها لتكون كاملة ٠

ان الخير الأعلى ـ عند الغزالى ـ هو السعادة الأخروية التى هى ـ كما يقول ـ بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر يخالطه ٠

وهذه هى السعادة الحقيقية ٠ واما ما عدا ذلك ، مما تعارف الناس على تسميته سعادة ، فيسمى كذلك اما خطأ كلذات هذه الحياة ومسراتها التى لا تعين على الآخرة ، واما بنوع من التجوز مثل ما يوصل للسعادة

---

(١٧) ميزان العمل للامام الغزالى ص ٢٩٤ وما بعدها ـ تحقيق د ٠ سليمان دنيا ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

الأخروية من سعادات الحياة التى نعيش فيها ، فان الموصل الى الخير والسعادة قد يسمى خيرا وسعادة ·

ولا ينبغى أن يفهم من ذلك ان الامام الغزالى يقف موقف الرافض لهذه الخيرات أو القيم المادية الوسيلية ، بل العكس هو الصحيح · فنظام الدنيا ـ كما يقول ـ شرط لنظام الدين · والحياة الدنيا هى المجال الذى يمارس فيه الانسان كل نشاطاته المادية والعقلية والروحية على السواء ·

ومن هنا حدد الامام الغزالى الضرورات الاجتماعية التى لا يقوم الدين بدونها فقال : « ان نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا ·· فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن ··· فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية »[(١٨)] ·

والطريق الى تحصيل السعادة الدائمة يتمثل فى رأى الغزالى فى قيمتين عظيمتين هما العلم والعمل ·

فالعمل شرط للسعادة لأن المراد به تحصيل الفضائل وكسر الشهوات والعلم هو الشرط الثانى لأن به يحصل للنفس الكمال[(١٩)] ·

* * *

٧ ـ خاتمـــة :

ويهمنا فى نهاية حديثنا ان نقف وقفة قصيرة عند هاتين القيمتين « العلم والعمل » الموصلان الى السعادة الحقيقية ·

فتقدم الشعوب والأفراد والامم والجماعات متوقف على العلم والعمل ، ودييننا الحنيف قد اهتم أعظم الاهتمام بهما ·

واذا تصفحنا آيات القرآن الكريم نجد التاكيد عليهما صريحا واضحا

---

(١٨) الاقتصاد فى الاعتقاد ١١٨/١١٩ طبعة صبيح ١٩٦٢ القاهرة ·

(١٩) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الاخلاق ص ٩٢ وما بعدها وص ١٠٠ وما بعدها ·

لا لبس فيه ... ويكفى أن نعلم ان أول كلمة نزلت من القرآن الكريم كانت « اقرأ » .

والقراءة وسيلة العلم ، وقد فضل الله الذين يعلمون على الذين لا يعلمون ، وجعل الاسلام مداد العلماء مساويا لدماء الشهداء .

والعلم الذى يقصده الاسلام لا يقتصر على العلم الدينى فقط ، بل يشمل العلم بجميع فروعه وتخصصاته وحيث أن العلم النظرى المحفوظ فى الصدور لا تكون له قيمة اذا لم يكن له تاثير فى صاحبه وفيمن حوله فان قيمة العمل هى الجناح الثانى من أجنحة التقدم المادى والعقلى والروحى على السواء .

ومن هنا ارتبط مفهوم العمل بالايمان فى القران الكريم . فهناك بصفة مستمرة الاشارة الى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

والتاكيد على قيمة العمل فى الاسلام لا يقف عند حد ، لأن قوام الدنيا والآخرة لا يكون الا بالعمل . وهذا رسول الله ﷺ يحثنا على العمل ما دمنا قادرين عليه حتى وقت قيام الساعة .

فينبغى أن نكمل عندئذ ما بداناه من عمل ، وفى ذلك يقول ﷺ : « ان قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فان استطاع الا يقوم حتى يغرسها فليفعل »[٢٠] .

والأمة الاسلامية فى عالم اليوم وفى كل العصور اذا ارادت ان يكون لها مكانها ومكانتها واذا أرادت أن تنهض من رقدتها وتستعيد أمجادها وتحقق الخير لأفرادها فعليها ان تتسلح فى ذلك بقيمتى العلم والعمل وما يندرج تحتهما وما يرتبط بهما من قيم اخرى مساعدة حتى نصل جميعا الى ما نصبو اليه من سعادة فى الدنيا والآخرة .

والله يوفقنا جميعا الى سبيل الرشاد .

* * *

---

(٢٠) راجع مسند أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ١٩١ (طبعة أسطنبول للكتب الستة مجلد ٢٢) .

الباب الثالث

الإسلام وتيارات الفكر الغربى

١ ـ الاسلام والاستشراق

٢ ـ الاستشراق والمقدسات الاسلامية

٣ ـ دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى



الفصل الأول

الاسـلام والاستشراق

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ تاريخ الاستشراق وتطوره

٣ ـ مواقف المستشرقين

(أ) الجوانب الايجابية

(ب) الجوانب السلبية

٤ ـ موقفنا من الاستشراق



الاسلام والاستشراق(١)

١ ـ تمهيد :

ان مما لا جدال فيه ان الاستشراق له اثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الاسلامى على السواء وان اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ولا يكاد المرء فى عالمنا العربى المعاصر يجد مجلة او صحيفة او كتابا الا وفيها ذكر او اشارة الى شىء عن الاستشراق او يمت اليه بصلة قريبة او بعيدة . وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الاسلامى والعالم الغربى ، بل يمكن أن نذهب الى ابعد من ذلك ونقول ان الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع ، ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر اليه على انه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى . فقد كان للاستشراق من غير شك اكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوروبية عن الاسلام وفى تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا العربى الاسلامى ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى اقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدوا لدودا للاسلام والمسلمين .

والواقع الذى لا يمكن انكاره هو ان الاستشراق له تاثيراته القوية فى الفكر الاسلامى الحديث ايجابا او سلبا اردنا ام لم نرد . ولهذا فاننا لا نستطيع ان نتجاهله او نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة ، اننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن راسها فى الرمال .

---

(١) محاضرة القيت ضمن محاضرات الموسم الثقافى للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى ١٤٠٣/٣/٤ هـ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٩ م .

ولهذا فانه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل ٠

ومن اجل ذلك اردت ان احدثكم اليوم عن الاستشراق وابعاده فى موضوعية هادئة او فى هدوء موضوعى ٠ ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه ان نوفى هذا الموضوع حقه من البحث ونستوفى الحديث عن كل جوانبه ، ولكن حسبنا أن نلقى بعض الضوء على بعض النقاط الهامة ، لعل ذلك يكون حافزا لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضوع ، ونبدأ أولا بالقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها ٠ وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهله شيئا معادا ومكررا ، ولكن لابد لنا على الرغم من ذلك من الامساك بشتى الخيوط التى تساعدنا على الالمام بجوانب الموضوع ، فضلا عن اننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطور الدراسات الاسلامية لدى المستشرقين ٠

* * *

٢ ـ تاريخ الاستشراق وتطوره :

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين الى مطلع القرن الحادى عشر ٠ ويرى المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت ان بداية الدراسات العربية والاسلامية فى اوروبا تعود الى القرن الثانى عشر ٠ وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى اجزائه الثلاثة سجلا للاستشراق على مدى الف عام ٠

وعلى اية حال فان الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة الى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الاسلام وعاداته ٠ وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الاسلام وزعموا فيما زعموا ان الاسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمدا ليس الا صنما او اله قبيلة أو شيطانا ، وغذت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين ٠ ولم يكن الهدف بطبيعة

الحال هو عرض صورة موضوعية عن الاسلام ، فقد كان هـذا ابعد ما يكون عن اذهان المؤلفين فى ذلك الزمان • وقد اعترف احد ممثليهم وهو « جيبير دو نوجينت » Guibert de Nogent بانه لا يعتمد فى كتاباته عن الاســلام على اية مصادر مكتوبة ، واشار فقط إلى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه اية وسـيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية « لا جناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن ان يتصوره المرء » • وقد اطلق « ساذرن » Southern على هـذه الفترة فى كتابه « نظرة الغـرب الى الاسـلام فى القرون الوسطى » عنوان : عصر الجهالة •

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للاسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول الى قدر من الموضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية • يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفا موضوعيا الا فى مجال مختلف تماما لا يمت الى الدين الاسـلامى الا بصلة بعيدة واعنى العلم بأوسع معانيه » •

وقد اخطأ « رودنسون » هنا فى جعله العلم لا يمت الى الاسـلام الا بصلة بعيدة • فقد كان الاسـلام فى واقع الأمر وراء كل انجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات •

وبدءا من عام ١١٣٠ كان العلمـاء المسيحيون فى اوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم ، وكان لرئيس اسـاقفة طليطلة الفضل فى اخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربيـة بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العـالم الكلاسيكى • وكانت هناك فى القرن الثانى عشر ايضا بعض المحاولات للتعرف على الاسـلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هـذه التعاليم الاسـلامية الالحادية • ومن اجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦) رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى اسبانيا يعملون كفريق واحد من اجل الحصول على معرفة علميـة موضوعية عن الدين الاسـلامى • وفى تلك الفترة

ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ قام بها الانجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton .

وهكذا نجد أنه قد كان هناك فى هـذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف ازاء الاسـلام • أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاها لاهوتيا متطرفا فى جدله العقيم ، ناظرا الى الاسـلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشـعبية • أما الاتجاه الثانى فقد كان نسـبيا بالمقارنة الى الاتجاه الأول أقرب الى الموضوعية والعلمية ، ونظر الى الاسـلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة • ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده • ولا يزال هـذا الاتجاه للأسف حيا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الاسلام ونبيه •

وأحد المسـيحيين المستنيرين القلائل الذين كانوا يتبنون ازاء الاسـلام موقفا أقرب الى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح امبراطورا حوالى عام ١٢٢٠ م وكان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية • وقد كان نصيب هـذا الامبراطور أن طرده البابا « جريجورى التاسع » Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩ • وقد كانت احدى التهم التى وجهت اليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الاسـلام •

والأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين اذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين ان تؤتى ثمارها بنجاح • ومن بين من تبنى هـذا الرأى الذى فرض نفسه بالتدريج ــ «روجر بيكون» Roger Bacon » ورايموند لل « Raimund Lull وقد صادق مجمع فيينـا الكنسى عام ١٣١٢ م على افكار بيكون ولل بشان تعلم اللغـات الاسـلامية واللغة العربية على وجـه الخصوص • وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا واكسفورد وسلمنكا •

وقد سـاعد على تقـدم الدراسـات الاستشراقية فى نهـاية العصر الوسيط تلك الصلات السـياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى

اتسعت رقعتها حينذاك . وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من اسبانيا وايطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر اثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

وفى القرن السادس عشر وما بعده ادت النزعة الانسانية فى عصر النهضة الأوروبية الى دراسات اكثر موضوعية من ذى قبل ، ومن ناحية اخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من اجل مصلحة التبشير . وفى عام ١٥٣٩ تم انشاء اول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس . وشغل هذا الكرسى « جيوم بوستل » Guillaume Postel (ت ١٥٨١) الذى يعد اول المستشرقين الحقيقيين . وقد اسهم كثيرا فى اثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوروبا ، وجمع فى الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر » Joseph Scaliger (ت ١٦٠٩) وفى عام ١٥٨٦ استفادت اللغة العربية فى أوروبا من المطابع التى اسسها الكاردنيال دوق تسكانيا الكثير .

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات الاسلامية ، وانشئت كراسى للغة العربية فى اماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالذكر ان قرار انشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة هدفين احدهما تجارى والآخر تبشيرى . فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كامبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦ الى مؤسسى هذا الكرسى ما يأتى : « ونحن ندرك اننا لا نهدف من هذا العمل الى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلا من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعليمها ، ولكنا نهدف ايضا الى تقديم خدمة نافعة الى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الاقطار الشرقية ، والى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات » . وفى القرن السابع عشر ايضا ظهرت مؤلفات عامة عن الاسلام والحضارة الاسلامية والأدب الاسلامى . وبدلا من الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان ،

وعن القرآن بوصفه بأنه مزيج من اللغو الباطل ظهرت آراء أخرى اقل عنفا ، وذلك على سبيل المثال لدى « بيير بايل » Pierre Bayle فى قاموسه التاريخى والنقدى « روتردام ١٦٩٧ » ، أو لدى « سيمون أوكلى » ١٦٧٨ - ١٧٢٠ فى كتابه تاريخ السراسنة اى العرب المسلمين . فالسرد التاريخى فى هذا الكتاب يعد نسبيا غير متحيز ، ولكن وصف المؤلف للنبى ﷺ بأنه « رجل خبيث جدا وماكر ، وان ما كان يبديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهرى يخفى حقيقة نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع » هذا الوصف أسقط المؤلف مرة ثانية فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة .

وقد كانت أول محاولة علمية جادة للتعرف على الاسلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland استاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولاندا . فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن الاسلام عام ١٧٠٥ م بعنوان « الديانة المحمدية » فى جزءين عرض فى اولهما العقيدة الاسلامية معتمدا على مصادر بالعربية واللاتينية . وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغريبة التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الاسلام . وقد اثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة ادت الى اثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للاسلام ، فى حين انه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى فهم الدين الاسلامى فهما صحيحا ممهدا السبيل الى محاربته من جانب المسيحية بطريقة افضل من ذى قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية ادرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب الى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والأسبانية . ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب الى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبىء عن قصد خبيث . وقد تعرض الاسلام الى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ويقول ريلاند « ان المرء يصح له حقا ان يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الاسلام لا كما يظهر من

خلال ضباب الجهل وخبث الناس ، وانما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم • فلم يحدث ان تعرض دين من الأديان فى هـذا العالم فى اى عصر من العصور الى مثل ما تعرض له الاسـلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشـويه والوصف بكل أوصاف السوء • وقد وصل الأمر الى حد ان من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر انه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح وان كل ما فيها فاسد • واذا ابدى احد رغبة صادقة فى التعرف على الاسـلام لا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات • ويضيف « ريلاند » قائلا : ينبغى على المرء بدلا من ذلك ان يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمدا نفسه وهو يتحدث فى لغتـه ، كما ينبغى على المرء ان يقتنى الكتب العربية وان يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن • فقد اعطى الله العقل لكل الناس • وقد كان فى رايى دائما ان ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا فى آسـيا وافريقيا ، وفى أوروبا ايضا ليس دينا ماجنا او دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحيين •

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الاسـلامى دين سىء جدا وضار بالمسيحية الى حد بعيد • ولكن اليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ الا ينبغى للمرء ان يكتشف اعماق الشيطان وحيله ؟ ان الأحرى هو ان يسـعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكى يحاربه بطريقة اكثر امانا واشـد قوة •

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هـذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسـة التى لم تقتنع بهـذه المبررات فحرمت تداول الكتـاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة ان ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس •

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥ انشئت فى باريس مدرسـة اللغـات الشرقية الحيـة وبدات حـركة الاستشراق فى فرنسـا تتخذ طابعـا علميـا على يـد « سلفسـتر دوسـاسى »

Silvestre de Sacy (ت ١٨٣٨) الذى اصبح أمام المستشرقين الأوروبيين فى عصره .

وفى عام ١٧٧٩ ظهر فى انجلترا مفهوم « مستشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنسا عام ١٧٩٩ . وادرج مفهوم « الاستشراق » Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ .

وهناك كثير من المستشرقين ـ وبوجه خاص فى المانيا والنمسا ـ بداوا طريقهم فى مجال الاستشراق مترجمين أو قناصل لدولهم فى الشرق الأوسط : مثل « جوزيف فون هامر برجشتال » (ت ١٨٥٦) مؤسس أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى « فيينا » من عام ١٨٠٩ الى عام ١٨١٨ . وفى ذلك الوقت بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوروبا وامريكا بانشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية . فقد تاسست اولا الجمعية الاسيوية فى باريس عام ١٨٢٢ ثم الجمعية الملكية الأسيوية فى بريطانيا وايرلندا عام ١٨٢٣ ، والجمعية الشرقية الامريكية عام ١٨٤٢ ، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥ .

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى اصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . وفى نهاية القرن التاسع عشر اصبحت الدراسات الاسلامية تخصصا قائما براسة داخل الحركة الاستشراقية العامة . وقد كان كثير من علماء الاسلاميات والعربية فى ذلك الوقت ـ مثل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن ـ مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية او فى دراسة الكتاب المقدس .

وفى عام ١٨٩٥ ظهرت فى باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الاسلامى وهى مجلة الاسلام ، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦ مجلة العالم الاسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب ، وقد تحولت بعد ذلك الى مجلة الدراسات الاسلامية .

وفى عام ١٩١٠ ظهرت مجلة « الاسلام » Der Islam الألمانية ،

وفى « بطرسبرج » بروسيا ظهرت مجلة « عالم الاسلام » Mir Islama عام ١٩١٢ ولكنها لم تعمر الا وقتا قصيرا • وفى بريطانيا ظهرت مجلة « العالم الاسـلامى » عام ١٩١١ على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط •

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الاسـلامى دوره فى استخدام فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الاهداف الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة الى خدمة الاستعمار • وسنعود الى الحديث عن هـذه النقطة مرة اخرى ان شاء الله •

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطـة اخـرى تتعلق بدور المستشرقين اليهـود فى اطار الحركة الاستشراقية والأسباب التى دفعتهم انى الاستشراق •

ان من الصعب الحصول على اجابة صريحة على هـذه النقطة • فقد اغفلت المراجـع انتى تتحدث عن الاستشراق وتطوره ـ اغفلت الحديث عن هـذا الجانب • ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى ان المستشرقين اليهود قد اسـتطاعوا أن يكيفوا انفسـهم ليصبحوا عنصرا أساسيا فى اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية المسيحية • فقد دخـلوا الميدان بوصفهم الاوروبى لا بوصفهم اليهودى • وقد استطاع جولد تسيهر فى عصره ـ وهو يهودى مجرى ـ أن يصبح زعيم الاسـلاميات فى أوروبا ، ولا زالت كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين • وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسـهم وبالتالى يقل تاثيرهم • ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا اولا فرض انفسـهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا ثانيا تحقيق اهدافهم فى النيل من الاسـلام ، وهى اهداف تلتقى مع اهداف غالبية المستسرقين المسيحيين •

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمـد البهى فى كتابه « الفكر

الاسلامى الحديث »(ص ٥٣٤) الى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير اسباب اقبال اليهود على الاستشراق ٠

وتتلخص هذه الملاحظة فى انهم اقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية تتمثل فى محاولة اضعاف الاسلام والتشكيك فى قيمه باثبات فضل اليهودية عليه بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الاسلام الأول ٠ ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولا ثم دولة ثانيا ٠ ويرى الدكتور البهى أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها ، فان الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى ٠

ونحن فى الواقع لسنا فى حاجة الى دليل لاثبات كراهية اليهود للاسلام ، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الاسلام ٠ وقد أكد القرآن ذلك فى قوله تعالى : « **لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا** »(٢) ٠ وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للاسلام والمسلمين ٠ وقد وجدوا فى مجال الاستشراق بابا ينفثون منه سمومهم ضد الاسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا فى الصهيونية بابا آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب المسلمين ٠

* * *

٣ ـ مواقف المستشرقين :

وبعد هذه النظرة السريعة على تاريخ الاستشراق وتطوره ننتقل الى الحديث عن نقطة أخرى وهى مواقف المستشرقين ٠ وهذا الموضوع يعد موضوعا حساسا للغاية ، اذ ان المواقف الاستشراقية تشتمل

---

(٢) المائدة : ٨٢

من غير شك على بعض الجوانب الايجابية التى يجب أن تذكر لهم ، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم • وحتى نكون موضوعيين فانه لابد لنا من الاشارة الى ما لهم من ايجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات • ولا ضير على المرء اذا اعترف بما لعدوه من مزايا ، اذ أن ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد ، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا ـ نحن المسلمين ـ ظروف العصر •

أما هذه الايجابيات التى سنذكر طرفا منها هنا فأود أن انبه الى ان بعضها يعد امورا تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم ، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ، وبعضها الآخر امور تتصل بانتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب ، وان كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة انفسهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم •

(أ) الجوانب الايجابية :

وتتمثل الجوانب الايجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ ـ يخدم المستشرقون اهدافهم التى وضعوها لأنفسهم باخلاص تام لهذه الأهداف وتفان الى اقصى حد وبكل الوسائل • وعندما اراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتابا عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسما اسلاميا هو عبد الغفار ، وزار مكة عام ١٨٨٤ واقام هناك مدة خمسة اشهر ، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها • وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج الى مكة ، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر ـ فى جزءين ـ وصف فيه مكة وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة • والمستشرقون بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس واحاطة تامة بالعديد من

اللغات القديمة والحديثة . وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق الى « الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم » .

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى . وانى أشك فى ان الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات . وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها » .

٢ ـ هناك ترابط بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية. فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة . وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩٦٨ ثلاثين مؤتمرا . وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الاقليمية . وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء . فمثلا مؤتمر « اكسفورد » كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية . ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشراقية .

٣ ـ التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والاسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه . ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الاسلامية والعربية فى بلادنا العربية . ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والاسلامية قديمها وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالاثم اذا ما نبهته الى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ ـ وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين . وقد تم اصدارها فى طبعتها الاولى بالانجليزية والفرنسية

والالمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٨ م وقد ترجمت الى العربية حتى حرف العين . وقد اصدر المستشرقون طبعة جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد بدأ ظهور هذه الطبعة الجديدة اعتبارا من عام ١٩٥٤ وقد صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات بالانجليزية والفرنسية .

٥ ــ تاريخ الادب العربى لبروكلمان (ت ١٩٥٦) وهو كتاب اساسى فى الدراسات العربية لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية والاسلامية . وهذا الكتاب لا يقتصر على الأدب العربى وفقه اللغة ، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الاسلامية . فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها ، والمطبوع ، ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين . وقد صدر اولا فى مجلدين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٢ ثم اتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ ثم اعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٩ فى طبعة اخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية . وقد وافق المؤلف على طلب الجامعة العربية على ترجمة الكتاب الى اللغة العربية . ولكن المشروع لازال للأسف يتعثر حتى الآن . ويقوم الباحث التركى المسلم « فؤاد سيزكين » ، تلميذ المستشرق الألمانى « هلموت ريتر » ــ بعد اكتشاف آلاف المخطوطات ــ يقوم باكمال عمل « بروكلمان » وذلك فى كتابه « التراث العربى » بالألمانية الذى ترجم بعضه الى العربية ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات . والحق يقال انه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب « فؤاد سيزكين » .

٦ ــ جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل ، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة ، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا ، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى مقر وجودها او طلب تصويرها بلا روتين او اجراءات معقدة . وقد قام مثلا « الوارد » Ahlwardt

بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة « برلين » فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا ، وصدر هـذا الفهرس فى نهاية القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط • وقـد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الاوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة • وتقدر المخطوطات العربية الاسلامية فى مكتبات اوروبا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها الى مئات الآلاف •

وهنا أيضا كلمة حق يجب أن تقال وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات الى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة • وعندما اقول هذا اشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والاسلامية وما آل اليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها •

٧ ـ للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم • واخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف • الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالاضافة الى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الامام أحمد ابن حنبل • وقـد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦٩ • وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الاسلامية فى العالم • وقد تعاون على اخراجه عـدد من المستشرقين المعروفين • ونشير أيضا الى الجهد الذى بذله « أوجست فيشر »(ت ١٩٤٩) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتبا حسب المصادر • فقد قضى فيشر اربعين عاما فى جمعـه وتنسيقه وتعاون معه عـدد من المستشرقين •

٨ ـ قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث • وقـد عرفنا الكثير من هذا التراث محققا ومطبوعا على أيديهم • ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا ايضا بترجمة مئات الكتب العربية الاسلامية الى كافة اللغات الأوروبية •

***

(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى القيناها على ما للمستشرقين من ايجابيات يحق لنا الآن ان ننبه الى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم . وتنصب النواحى السلبية بصفة اساسية على دراساتهم عن الاسلام وما يتصل به . وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات :

١ ـ يعد الاستشراق اسلوبا خاصا فى التفكير ينبنى على تفرقة اساسية بين الشرق والغرب . « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور « كبلنج » Kipling . فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شىء .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهى ان الحضارة الغربية ـ التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية ـ مبنية فى الاصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام ، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب . وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية الى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق امرا مخالفا للمنطق . فالمسيحية دين شرقى . والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالاسلام ، زعم لا اساس له من العلم ولا من الواقع ، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين ، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الاسلام وزره . فهذا التخلف يعد ـ كما يقول المرحوم « مالك بن نبى » عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

٢ ـ الاستشراق ـ من بين شتى العلوم الأخرى ـ لم يطور كثيرا فى اساليبه ومناهجه . وفى دراسته للاسلام لم يتخلص قط من الخلفية

الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسا • ولم يتغير شىء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ • وتخدم اليوم وسائل الاعلام المتعددة فى الغرب فى تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى لا يزال ينظر الى الاسلام الى حد كبير بمنظار القرون الوسطى • ولعل هذا هو ما دعا السكرتير العام للمجلس الاسلامى الأوروبى فى شهر يناير ١٩٧٩ الى التنديد بوسائل الاعلام الغربية لموقفها من الاسلام ، ووصفه لهذا الموقف بالاجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها • وهذا كله يحدث على الرغم من ان مجلس الفاتيكان قد اشاد فى اكتوبر ١٩٦٥ بالحقائق التى جاء بها الاسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والانبياء والمرسلين ، وعلى الرغم أيضا من قول المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » : ان الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى الى نوايا جانبية غير صافية •

وللمستشرق الفرنسى المعاصر « رودنسون » وجهة نظر اخرى حيث يذهب الى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الأوروبية للاسلام ، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة • فلم يعد بامكانهم الزعم الكاذب بانه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى • وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر ، فاننا نجد بعض الكاثوليك المتخصصين فى الاسلام يعتبرون محمدا ﷺ « عبقريا دينيا » ويتساءل آخرون عما اذا كان فى الامكان اعتباره بطريقة ما نبيا حقيقيا ما دام القديس توماس الاكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال • ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاءا الهيا ووحيا سماويا وعصمة ربانية •

والواقع انه ليس بالأمر الغريب ان يختلف المستشرقون معنا ــ نحن المسلمين ــ فى الرأى حول الاسلام ، وانما الغريب ان يتفقوا

معنا فى الرأى ٠ وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للاسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين ٠ ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم ان يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر الى الاسلام على انه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وان محمدا خاتم النبيين ، وان القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين ٠ وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للبعض منهم ممن تحول الى الاسلام ٠ وهذا التحول الى الاسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى ٠

ونحن لا نطلب من كل مستشرق ان يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الاسلام ٠ ولكن هناك اوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم ٠ فعندما ارفض وجهة نظر معينة لابد ان ابين للقارىء اولا وجهة النظر هذه من خلال فهم اصحابها لها ، ثم لى بعد ذلك ان اخالفها ٠ وعلى هذا الأساس نقول : ان الكيان الاسلامى كله يقوم على اساس الايمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيا من عند الله ٠ ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الاسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الايمان فى تاريخ المسلمين ، ثم له بعد ذلك ان يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم ٠ اما ان يعرض المستشرق الاسلام بادىء ذى بدء من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات واوهام فهذا ما لا يقره علم ولا خلق ٠ وهذا ما يجعلنا نقول – مع الدكتور حسين مؤنس – : ان محمدا الذى يصوره المستشرقون ليس هو محمد الذى نؤمن برسالته ، وانما هو شخص آخر من صنع خيالهم ، والاسلام الذى يعرضونه فى كتبهم ليس هو الاسلام الذى ندين به ، وانما هو اسلام من اختراعهم ٠

وهكذا يمكن القول بان الاستشراق – فى دراسته للاسلام – ليس علما باى مقياس علمى ، وانما هو عبارة عن ايديولوجية خاصة

يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الاسلام بصرف النظر عما اذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق او مرتكزة على اوهام وافتراءات . وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديما . فاذا وصفنا المستشرقين فى دراستهم للاسلام ـ الا بعض الشواذ منهم ـ اذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الاطلاق . ولكن الانصاف يقتضينا ايضا ان نقول : ان الدراسات الاستشراقية كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الاسلامية كلما كانت اقرب الى الموضوعية وابعد عن التحامل .

٣ ـ يعمد المستشرقون الى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الاسلامى وعلى نبيه . فالمسيح ـ فى نظر المسيحيين ـ هو اساس العقيدة ، ولهذا تنسب المسيحية اليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الاسلام واعتبرو ان محمدا يعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية ، ولهذا اطلقوا على الاسلام ـ اسم « المذهب المحمدى Mohammedanism » ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو اعطاء الانطباع بأن الاسلام دين بشرى من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية الى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله . وتتم مقارنة اخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس : فمحمد مزواج وشهوانى فى مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج ، ومحمد محارب وسياسى اما يسوع فهو مسالم مغلوب ومعذب يدعو الى محبة الأعداء .. وهكذا .

٤ ـ الخلط بين الاسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الاسلامى فى عالم اليوم . فاسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج اسلاما ميتا . اما الاسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الاسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الاسلامية ، وهو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الاسلام الأول .

٥ ـ التاكيد على اهمية الفرق المنشـقة عن الاسـلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشـية وغيرها من فرق قديمـة وحديثة ، وتعميـق الخلاف بين السـنة والشـيعة • ودائما يعتبرون المنشـقين اصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائما يهتمون بكل غريب وشـاذ ، ودائما يقيسـون ما يرونه فى العالم الاسـلامى على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة • وقد اشـار المستشرق رودنسـون الى ذلك حين قال : « ولم ير المستشرقون فى الشرق الا ما كانوا يريدون رؤيته ، فاهتموا كثيرا بالأشـياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون ان يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها اوروبا ، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه » •

٦ ـ يفتقد المرء الموضـوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الاسلامى فى حين انهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لها • فالاسـلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يهاجم • والمسـلمون فقط من بين الشرقيين جميعا هم الذين يوصـمون بشتى الأوصاف الدنيئة • ويتساءل المرء : لمـاذا ؟

ولعل تفسير ذلك يعود الى ان الاسـلام كان يمثل بالنسـبة لأوروبا صـدمة مستمرة • فقد كان الخوف من الاسلام هو القاعدة • وحتى نهاية القرن السـابع عشر كان « الخطر العثمانى » رابضـا عند حـدود اروبا ويمثل ـ فى اعتقادهم ـ تهديدا مسـتمرا بالنسـبة للمدنية المسيحية كلها •

ولهذا يمكن القول ـ كما يقول ادوارد سـعيد ـ بأن الاستشراق من الناحية النفسـية يعـد صـورة من صـور جنون الاضطهاد • فالاسلام اذن حتى فى عصر ضـعف اتباعـه لا يزال يمثـل تحديا على كافة المستويات • فهل يعى المسـلمون هذه الحقيقة ؟ •

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله « موير » Muir : « ان سيف محمـد والقرآن هما اكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضـد

الحضارة والحرية الحقيفية » ، وما يزعمه فون جرونيباوم من ان الاسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها فى اى دين آخر او حضارة اخرى · فهو دين غير انسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية · وهو دين غير اخلاقى وغير علمى واستبدادى ·

وهكذا يتضح الحقد الدفين على الاسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب ·

٧ - يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للاسلام موقف ممثل الاتهام والقاضى · فبينما نجد مثلا أن علم التاريخ يحاول ان يفهم فقط ولا يضع موضع الشك اسس المجتمع الذى يدرسه ، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل حق الاتهام والرفض للأسس الاسلامية التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى · وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال ان تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت ·

٨ - تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى اذل العالم الاسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث · ويقول المستشرق المعاصر « اشتيفان فيلد » بصدد الاشارة الى تلك الفئة من المستشرقين : « والأقبح من ذلك انه توجد جماعة يسمون انفسهم مستشرقين ، سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الاسلام والمسلمين · وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة » ·

ومن بين الأمثلة العديدة فى هذا الصدد نذكر المستشرق « كارل هينريش بيكر » (ت ١٩٣٣) مؤسس مجلة الاسلام الألمانية · فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى افريقيا · اما « بارتولد » Barthold (ت ١٩٣٠) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى · اما عالم الاسلاميات الهولندى الشهير « سنوك هورجرونيه » (ت ١٩٣٦) فقد لعب دورا هاما فى

تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى اندونيسيا ، اما المستشرق الفرنسى المعروف ماسنيون فقد كان مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال افريقيا . وغير هؤلاء كثيرون وضعوا انفسهم وعلمهم ودراساتهم فى خدمة الاستعمار ضد الاسلام والمسلمين .

٩ ــ الدعوة الى اصلاح الاسلام : يزعم المستشرقون ان الاسلام دين جامد ، وانه لم يعد مسايرا لروح العصر . ولذلك فهو فى حاجة الى اصلاح جذرى . وفى ذلك يقول احد المستشرقين « ان على الاسلام اما ان يعتمد تغييرا جذريا فيه او ان يتخلى عن مسايرة الحياة » . وهذه دعوة يوجهها الى المسلمين غريب عنهم بشان ما ينبغى عليهم ان يفعلوه فى دينهم . وهذا الاصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الاسلام ، وجعل الاسلام أقرب الى المسيحية بقدر الامكان .

ولعله من نافلة القول ان نشير هنا الى أن الاسلام يشتمل على أصول لا يملك احد ان يغير فيها شيئا وهى عقائد الاسلام الأساسية ، ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الاسلامية ، وان الاصلاح الذى نفهمه نحن المسلمين هو اصلاح للفكر الاسلامى الذى هو فى حاجة الى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى اطار من التعاليم الاسلامية .

ولكن الدعوة الى اصلاح الاسلام او تحديثه كما يقال احيانا ليست بهذا المفهوم ، وانما هى عبارة عن تفريغ الاسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم امور المجتمع ، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية .

ويتورط البعض من ابناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة الى اصلاح الاسلام كما يفهمها المستشرقون . ومن احدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى المانيا الغربية فى العام الماضى (١٩٨١) بعنوان

أزمة الاسلام الحديث ـ لمؤلف عربى مسلم يعمل أستاذا فى جامعة فرانكفورت بألمانيا ، يدعو فيه بحماس الى الاخذ بالنموذج الغربى فى الاصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف الزامية . فذلك فى نظره هو الحل الوحيد لأزمة الاسلام ، وبذلك يتم ابعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى .

وهكذا نوفر نحن ابناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل ، ونتولى نحن الدعوة الى تحقيق الأهداف التى عاشوا قرونا طويلة يعملون من اجلها دون جدوى .

* * *

٤ ـ موقفنا من الاستشراق :

والآن ـ وبعد ان اتضحت لنا بعض الشىء ابعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها ـ لابد لنا من الحديث عن موقفنا ـ نحن المسلمين ـ من الاستشراق ـ وهذا يستدعينا ان نتذكر ما كان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف .

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل تحديا للاسلام والفكر الاسلامى الأصيل فى عصور الاسلام الزاهرة ـ كانت حافزا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف امامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه . فقد هضم الفكر الاسلامى تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية . فالمواجهة اذن كانت مواجهة فكرية . وكان التاريخ الآن يعيد نفسه ، فالحرب الآن بين الاسلام والتيارات المناوئة له حرب افكار ، والمعركة معركة فكرية ، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها ، فالخسران فى هذه المعركة اشد وطأة واقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة اية معركة حربية أيا كان حجمها . لننظر مثلا نموذجا رائدا فى تاريخ الفكر الاسلامى ... انه حجة الاسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعا منتصرا ، فماذا كان يفعل . يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : « انه لا يقف

على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى اعلمهم من اهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ... واذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا » .

وقياسا على ما يقوله الامام الغزالى نجد ان استيعاب الانتاج الاستشراقى حول الاسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقدا صحيحا واثبات ما يتضمنه من تهافت او زيف ، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون الف مرة قبل ان يكتبوا تحسبا لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم . ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير الى ان هناك طريقا واحدا فقط لنقد المستشرقين . وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم ، ويجب ان يرتبط نقدنا لانتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة ، يجب ان نواجه انفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا ، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر .

وقد يتمثل الجانب الايجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس فى صورة المدح ، وكلنا نعلم ان هناك عددا لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم واثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا : وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) . ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا ، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان ، ونركن الى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا ، ونظن اننا عظماء لأن اجدادنا كانوا عظماء ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول :

« ان المسلمين اصبحوا كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ، اجابوه ان آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه اباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من

الخمول والضعة . ان الشرقيين كلما ارادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : افلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا . ولكنكم أنتم أولاء كما كنتم ، فلا يليق بكم ان تتذكروا مفاخر آبائكم الا أن تفعلوا فعلهم » .

ومن هنا نقول ان الجانب الهجومى التفنيدى الاستفزازى فى انتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيرا من جانب المدح تأكيدا للمثل المعروف « رب ضارة نافعة » ، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزا لنا لنخرج من حالة الركود الفكرى التى وصلنا اليها لننطلق من جديد ، فننهض ونبنى افكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا ، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا . ولعل هذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى انها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديا معينا .

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها ، وانما هو الرد الفعال الذى ينتقل الى الموقف الأقوى . فلا يجوز أن نقف دائما موقف المعتدى عليه ، فالمعتدى عليه غالبا ما يكون ضعيفا . ولهذا لابد من أن نغير وضعنا ، وذلك لن يكون الا بتغيير افكارنا ، فنحن لسنا متخلفين لقلة اشيائنا ، ولكن تخلفنا لقلة افكارنا وتبدد جهودنا ، ولن تتغير احوالنا الا بتغيير ما فى نفوسنا « **ان اله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** »(٣) .

ولابد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الاسلامى عن معرفة ذاته . فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية . ويوم ان يعى العالم الاسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله اثقال التخلف الفكرى والحضارى - يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة ، وخاصة الاستشراق المشتغل بالاسلام ، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوروبا ولا فى العالم الاسلامى . ولكى نكون اكثر وضوحا واكثر

---

(٣) الرعد : ١١ .

تحديدا فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها أمور أساسية فى هذا المجال :

١ ـ علينا أن ننظر الى حركة الاستشراق بكل جدية ، ونأخذ فى حسابنا أن لها آثارا عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الاسلامى وفى العالم الغربى على السواء ·ولهذا لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة · وليس يكفى أن نقول ان ما يكتبونه كلام فارغ · فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشارا واسعا على مستوى عالمى · ومواجهته لابد أن تكون على نفس المستوى العالمى · وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس ·

٢ ـ بدلا من أن نظل نقتات فكريا من دائرة المعارف الاسلامية التى قام باعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتى تجاوزوها ويقومون منذ سنوات باصدار دائرة معارف اسلامية جديدة ـ علينا أن نقوم نحن المسلمين باصدار دائرة معارف أسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الاسلامية للمستشرقين تخطيطا وتنظيما وتتفوق عليها علميا ، وتنقل وجهة النظر الاسلامية فى شتى فروع الدراسات الاسلامية والعربية الى المسلمين وغير المسلمين على السواء ·

فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بافكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافبه وربما معادية لأفكارنا ، فلا نلومن عندئذ الا انفسنا ·

٣ ـ علينا ان نوحد جهودنا فى العالم الاسلامى لاقامة مؤسسة اسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء الى بلد اسلامى معين ولا لمذهب سياسى او فكرى او دينى معين ، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الاسلامية فى شتى انحاء العالم ، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة ، وتعمل على استعادة اصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان

الأفكار ، فهذا هو الطريق الصحيح الى الاستقلال الاقتصادى والسياسى ، اذ أن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه .

والأمر الذى يؤسف له حقا هو أننا على امتداد العالم الاسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الالف مليون وبكل ما لنا من امكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية لها نفس الامكانات العلمية والمادية التى تملكها المؤسسة الاستشراقية . أليس هذا من الأمور التى تدعو الى الأسى والحسرة ؟ .

٤ - لابد أن تكون لنا مؤسسة تبشيرية عالمية ، وأعنى بذلك جهازا للدعوة الاسلامية فى الخارج يدعو للاسلام من ناحية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة . ولابد من اصدار كتب اسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الاسلام فى الأذهان وتعرض الاسلام بأسلوب علمى يتناسب مع العقلية المعاصرة ، وتقدم الحلول الاسلامية لمشكلات المسلمين العصرية .

٥ - لابد من اعداد ترجمة مقبولة لمعانى القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات والتى قام باعدادها المستشرقون وصدورها فى غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الاسلام . ولابد أيضا من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها أيضا لتكون مع ترجمة معانى القرآن فى متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الاسلام من منابعه الأصلية .

٦ - العمل على تنقية التراث الاسلامى حتى يكون غذاء فكريا صالحا للمسلم . فتراثنا فيه الغث وفيه السمين . ومع ان الاسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والاسرائيليات التى تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا ، فان المستشرقين يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه . ويكفى أن نشير فى هذا الصدد الى مثال واحد وهو قصة الغرانيق

المذكورة فى كتبنا والتى ركز عليها المستشرقون ، فاذا اتهمناهم بالتجنى حق لهم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخترع شيئا من عندياتنا . اليست القصة واردة فى مصادركم المعتمدة ؟ .

٧ — محاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والاسلامية فى الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الاسلامى ودول اوروبا وأمريكا ، وذلك بارسال أساتذة أكفاء من الأقطار الاسلامية الى معاقل الاستشراق للتدريس فيها . وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوروبية عن الاسلام بالعمل العلمى الدءوب وليس عن طريق الشعارات فقط . واعتقد أن هناك الآن جامعات فى اوروبا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك .

* * *

وبعد ...

لقد حاولنا بما عرضناه على مسامعكم فى هذه المحاضرة من نقاط أن نكون منصفين لأنفسنا ولغيرنا ، وأن نكون موضوعيين نرى الأسود اسود والأبيض ابيض حتى لا تختلط علينا الرؤية فنخطىء الطريق الصحيح الى فهم ابعاد المشكلة . وليس ما قلناه عن الاسلام والاستشراق هو نهاية المطاف . وانما هى مجرد ملاحظات نقصد من ورائها الدعوة الى التأمل والتفكير فى ابعاد هذه المشكلة المطروحة .

وارجو ان اكون قد وفقت الى الصواب .. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

مراجـــع البحث

١ ـ تراث الاسلام ـ القسم الأول ـ تصنيف شاخت وبوزورث . ترجمة د. محمد زهير السمهورى (سلسلة عالم المعرفة بالكويت ـ رمضان ١٣٩٨ ـ اغسطس ١٩٧٨) .

٢ ـ الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمـانية . تأليف رودى بارت . ترجمة د. مصطفى ماهر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ .

٣ ـ نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى تاليف ر . و . سذرن . تعريب د . على فهمى خشيم ، د . صلاح الدين حسن . دار مكتبة الفكر طرابلس ـ ليبيـا ١٩٧٥ .

٤ ـ الفكر الاسـلامى الحديث وصلته بالاسـتعمار الغربى للدكتور محمد إلبهى ـ دار الفكر بيروت ١٩٧٣ .

٥ ـ انتاج المستشرقين واثره فى الفكر الاسلامى الحديث . تاليف مالك بن نبى . مكتبة عمار بالقاهرة ١٩٧٠ .

٦ ـ أوروبا والاسـلام ـ تاليف هشـام جعيط ، ترجمة د. طلال عتريسى . دار الحقيقة . بيروت ١٩٨٠ .

٧ ـ المستشرقون ـ فى ٣ أجزاء ـ تاليف نجيب العقيقى . الطبعة الرابعة . دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠/١٩٨١ .

٨ ـ الاسلام فى الفكر الغربى ـ للدكتور محمود حمدى زقزوق . دار القلم بالكويت ١٩٨٦ .

9 — Gustav Pfannmueller : Handbuch der Islamliteratur, Berlin 1923.

10 — Edward W. Said:Orientalismus, Frankfurt / M. 1981.

11 — C. E. Bosworth : Orientalism and Orientalists (in : Arab Islamic Bibliography) , 1971 Great Pritain.

الفصل الثانى

الاستشراق والمقدسات الاسلامية

- تمهيد
- المقدسات الاسلامية
- الاستشراق وقدسية الحرمين الشريفين
- المسجد النبوى فى المدينة
- خاتمة



الاستشراق والمقدسات الاسلامية(١)

● تمهيـــــــد :

نقصد بالاستشراق هنا ذلك التيار الفكرى السائد فى الغرب فى مجال الدراسات الاسلامية والذى يمثله العلماء الغربيون المتخصصون فى العلوم الاسلامية وهم المستشرقون . وهؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم من حيث القرب أو البعد عن النظرة الموضوعية والمنهجية العلمية . ومن الطبيعى أن تكون لهم وجهات نظر تختلف عن وجهات نظرنا نحن المسلمين لأنهم لا يدينون بالاسلام .

ومن هنا تأتى ضرورة التعرف على التصورات التى أذاعها هؤلاء العلماء فى الغرب حول الاسلام لنعرف ماذا يقول الآخرون عنا وعن ديننا ، ومن ناحية أخرى لنعمل على تصحيح التصورات الخاطئة ، ونسعى لتغيير الفهم غير السليم لديهم للكثير من عقائدنا الاسلامية .

وفى هذا الحديث الموجز نريد ان نقصر كلامنا على جانب واحد من التصورات الاستشراقية وهو جانب المقدسات الاسلامية . ومن المفيد قبل البدء فى عرض هذه التصورات وما تحمله من اتجاهات ان نحدد اولا ما هى المقدسات الاسلامية ثم نعرض بعد ذلك بنظرة نقدية وجهات النظر الاستشراقية حول هذه المقدسات وبوجه خاص حول قدسية الحرمين الشريفين .

* * *

● المقدسات الاسلامية :

اذا رحنا نبحث عن كلمة قدس او تقديس فى اللغة سنجد ان القدس (بسكون الدال وضمها) معناه الطهر والتقديس هو التطهير ، وتقدس بمعنى تطهر ، والأرض المقدسة هى الأرض المطهرة .

---

(١) القى هذا البحث فى الندوة التى عقدها المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة حول « قدسية الحرمين الشريفين » فى منتصف نوفمبر ١٩٨٧ .

ومن هنا فان مفهوم المقدسات الاسلامية يعنى الأماكن المطهرة فى الاسلام ٠ وهــذا يمكن أن ينسحب على كل مكان يخصص لعبادة الله ٠ والتطهير هنا ليس أمرا صادرا عن البشر وانما هو أمر صادر عن الخالق جل وعلا ٠ وهــذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى أول سورة الاسراء على سـبيل المثال :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ٠

فالمسجد الحرام لم تأت له هــذه الحرمة من أحد غير الله والمسجد الأقصى كذلك فالله سبحانه هو الذى بارك حوله ٠ فهو وحده القدوس ومنه يأتى التقديس أو التطهير وهو الذى يرسل روح القدس بالوحى ٠

وهكذا نجد ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يجعل بعض الأماكن حراما كما يجعل بعض الأيام أو الأشــهر حراما ٠ ومن هنا كانت الاشارة فى القرآن الكريم الى الشــهر الحرام والمسجد الحرام والمشهد الحرام والأشــهر الأربعة الحرم والكعبة البيت الحرام ٠

وهــذه الحرمة ليست أمرا هينا ولكنهـــا أمر بالغ الأهميـــة وذلك ما يؤخذ من الآيات القرآنية العديدة التى تنص على ذلك ٠ فقد ورد تعبير المسجد الحرام فى القرآن الكريم فى خمسة عشر موضعا وتعبير البيت الحرام فى موضعين ٠

واذا قصرنا حديثنا هنا على الأماكن المقدسة فسنجد ان القرآن الكريم قد نص صراحة على المسجد الحرام وعلى المسجد الاقصى ٠ وقد الحقت الســنة النبوية بهما المسجد النبوى وذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى »[٢] ٠

---

(٢) رواه البخارى ومسلم ، وقد روى الشيخان ايضا قوله عليه الصلاة والسلام : « صلاة فى مسجدى هذا خير من الف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام » ٠

كما حرم النبى ﷺ المدينة وبين حدود حرمها فقال : « ان ابراهيم حرم مكة (*) ودعا لأهلها ، وانى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ، وانى دعوت فى صاعها ومدها بمثل ما دعا ابراهيم لأهل مكة » ـ رواه البخارى ومسلم . وهو حديث حسن .

وفى حديث آخر رواه البخارى فى كتاب الفرائض يقول النبى ﷺ: « المدينة حرم ما بين نمير الى ثور ، فمن احدث فيها او آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا »(**) .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى مسجد الرسول بأنه مسجد اسس على التقوى من اول يوم . ووصف رواده بانهم رجال يحبون أن يتطهروا . وذلك فى قوله تعالى : « **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** »(٣) .

وقد قيل ان المقصود بالمسجد المذكور فى هذه الآية هو مسجد قباء وقيل مسجد الرسول فى المدينة ، والظاهر ان الكلام يشملهما معا لوجود الوصف فيهما(٤) . ومما يؤيد القول بأنه مسجد المدينة ما ورد فى حديث

(*) لا يتعارض ذلك مع ما سبق ان ذكرناه من ان الحرمة من عند الله ، لأن ابراهيم عليه السلام لم يحرم مكة الا بأمر الله ، كما أن تحريم الرسول للمدينة لم يكن ايضا من عند نفسه وانما بتوجيه من الله .

(**) راجع كتاب الدرة الثمينة فى أخبار المدينة للعلامة محمد بن محمود بن النجار ـ ملحق بالجزء الثانى من شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لابى الطيب تقى الدين الفاسى . ص ٣٧٧ وما بعدها ـ طبع عيسى البابى الحلبى ١٩٥٦ .

(٣) انظر سورة التوبة ، الآية ١٠٨ .

(٤) التفسير الواضح للمرحوم الدكتور محمد محمود حجازى ، جـ ١١ ، ص ١٥ .

شريف اخرجه مسلم عن ابى سعيد انه سأل النبى ﷺ عن المسجد الذى اسس على التقوى ، قال : مسجدكم هذا ، مسجد المدينة(*) •

وقد اصبح لهذه الأماكن الثلاثة : المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى خصوصية عظيمة لدى المسلمين ، وهم مطالبون بالحفاظ عليها وحمايتها والدفاع عنها •

اما المسجد الاقصى فهو أسير فى يد العدو الصهيونى • وواجب المسلمين جميعا ان يعملوا من أجل استعادته بوصفه احد المقدسات الاسلامية التى باركها الله وبارك حولها • وقد عقد العديد من المؤتمرات الاسلامية من أجل المسجد الأقصى ولازلنا ننتظر تحريره وتحرير الأرض وتحرير البشر من يد المحتل الغاصب •

اما المسجدان الآخران المقدسان فى الاسلام وهما المسجد الحرام فى مكة المكرمة والمسجد النبوى فى المدينة المنورة فهما والحمد لله فى يد أمينة • ولكنهما مع ذلك قد تعرضا ولا يزالان يتعرضان بين الحين والحين على مدى التاريخ لبعض الأخطار من جانب بعض العناصر التى لا تريد للمسلمين استقرارا ولا أمنا حتى فى بيت الله الحرام الذى جعله الله بيتا آمنا لمن دخله او لاذ به أو لجأ اليه •

ويهمنا فى هذا الحديث القصير ان نركز حديثنا على قدسية الحرمين الشريفين •

* * *

● الاستشراق وقدسية الحرمين الشريفين :

بعد ان المحنا الى قدسية الحرمين الشريفين فى الاسلام نود ان نعرض هنا باختصار الى بعض التصورات الاستشراقية حولهما بادئين بالمسجد الحرام فى مكة •

(*) راجع أيضا : القرى لقاصد ام القرى للحافظ ابى العباس احمد بن عبد الله محب الدين الطبرى ــ من تحقيق مصطفى السقا ــ طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٤٨ ص ٦٢٥ وما بعدها •

تقول الموسوعة الاسلامية الميسرة التى أصدرها المستشرقون :

الحرم اسم المنطقة المقدسة من مكة والمدينة (وغالبا بصيغة المثنى) فيقال الحرمان ، فضلا عن المنطقة المقدسة فى بيت المقدس . وهذا كلام لا غبار عليه .

ولكنهم فى حديثهم عن كلمة مسجد يزعمون ان هذه الكلمة ليست عربية الأصل ويرون انها مأخوذة من اللغة الآرامية أو مكونة بصورة مستقلة من سجد المأخوذة من الآرامية مثل كلمة مسجاد الاثيوبية ومعناها معبد او كنيسة(٥) .

وبعد الاشارة الى اهمية المسجد الحرام بالنسبة الى النبى واصحابه يذكر المستشرقون ان محمدا ﷺ وانباعه ـ شانهم شان الآخرين من أهل مكة ـ كانوا يطوفون بانتظام بالكعبة ويقبلون الحجر الاسود ، وكثيرا ما يذكر انه عليه الصلاة والسلام قد اعتاد الجلوس فى المسجد مثل مواطنيه بمفرده او مع أحد من انباعه او يجادل خصما ، وتشير الموسوعة فى هذا الصدد الى الآية الثانية من سورة الكوثر التى تقول :

« فصل لربك وانحر » .

ولكن هذا الأمر الالهى بالصلاة والنحر لم يكن ـ كما يزعم المستشرقون ـ امرا باتباع المشركين فى طقوسهم الدينية التقليدية ، بل جاء هذا الامر بعد تذكير الله لنبيه بانه قد اعطاه الكوثر اى الخير الكثير البالغ حد الافراط ، فقد اعطاه النبوة والدين الحق وارسله للناس كافة وجعل دينه خاتم الأديان وانزل عليه القرآن الذى يشتمل على خيرى الدنيا والآخرة له ولأمته الى يوم الدين . واذا كان الأمر كذلك فان هذا يستدعى الشكر لله بالصلاة له وحده ونحر الذبيحة مما هو نسك لله ، فليس هنا شىء يرتبط بطقوس تقليدية للمشركين الذين كانوا يتوجهون بعبادتهم وذبائحهم لأصنامهم .

وهذا يدل على خلط المستشرقين بقصد او بغير قصد ليبرهنوا على عدم استقلالية الاسلام فى تعاليمه وتشريعاته ولذلك نقرأ لديهم قولهم أيضا :

---

(٥) الموسوعة الاسلامية جـ ٢ ، ص ١٠١٨ .

« هنا وكما فى اى مكان آخر احتفظ محمد بالعادات القديمة حيث لم تستبعدها تعاليمه بشكل مباشر • ولكن عندما نشأ من تعاليمه دين مستقل كان لابد من ايجاد نوع جديد من الصلاة »(٦) •

ويضيف المستشرقون الى ذلك قولهم : « فى العقيدة التى بشر بها محمد لم يكن وجود حرم بالضرورة الأساسية فالأماكن جميعا سواء عند الله » ويشيرون فى هذا الصدد الى الحديث الشريف : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ، والى قوله عليه الصلاة والسلام : « أينما ادركتك الصلاة فصل فهو مسجد " • ثم تقول الموسوعة : « اما انه ظل برغم ذلك متعلقا فى ثبات بحرم الكعبة التقليدى فهذا احدث خلطا فى الفكر واضحا جدا فى سورة البقرة آية ١٣٦ وما بعدها »(٧) •

وما يقوله المستشرقون هنا فيه حق مختلط بباطل • صحيح ان الأرض كلها تصلح ان تؤدى فيها الصلاة وهذا تيسير وفضل من الله • ولكن بيت الله الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله **« ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركة وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا »**(٨) • هذا البيت له منزلة خاصة لانه :

اولا : اول بيت وضع للناس •

ثانيا : هو الجهة التى يتجه اليها المسلمون فى صلاتهم من كل مكان •

ثالثا : يأتى اليه المسلمون من كل فج عميق ليحجوا اليه ويؤدوا شعائر الله •

فتعلق النبى بهذا البيت ليس تعلقا بتقاليد العرب القديمة ولكن

---

(٦) الموسوعة الاسلامية الميسرة ، جـ ٢ ، ص ١٠١٩

(٧) المرجع السابق • وقد ورد رقم الآية المذكورة فى الترجمة العربية للموسوعة ٤٤١ مع أن سورة البقرة كلها تضم ٢٨٦ آية فقط ، وبالرجوع الى الطبعة الألمانية للموسوعة تبين ان رقم الآية هو ١٣٦ وما بعدها •

(٨) سورة آل عمران ٩٦ ـ ٩٧

بتلك المنزلة الخاصة لهذا البيت عند الله وما يرتبط به من شعائر اسلامية لاصلة لها بشعائر المشركين الوثنيين ٠

اما ما يزعمه المستشرقون من خلط فى الفكر فى الآيات ١٣٦ وما بعدها من سورة البقرة فلست اجد اى ترابط بين هذه الآيات وبين ما يزعمونه من خلط فى الفكر ٠ فالآيات تقول : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ٠ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » ، الى نهاية الآية ١٤١ « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون »٠

فهذه الآيات جميعها من ١٣٦ حتى ١٤١ ليس فيها اية اشارة الى ما يؤيد زعمهم ٠ فهى كلها تتحدث فى موضوع آخر ٠ ولعلهم يقصدون الآية ١٤٢ التى تقول « سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » ٠

فقبلة المسلمين كانت اولا الى بيت المقدس ثم تحولت بعد ذلك الى الكعبة فى مكة الامر الذى احدث خلطا فى فكر السفهاء من الناس حينذاك وهم اليهود والمشركون والمنافقون ٠ ولكن الله سبحانه وتعالى ـ الذى له المشرق والمغرب ـ قد اراد ان يربط قلوب المسلمين بالأماكن المقدسة التى باركها ووجههم اولا الى الصلاة فى اتجاه بيت المقدس ٠ وهذا المعنى يجب ان يدركه المسلمون اليوم جيدا فبيت المقدس هو اول القبلتين وثانى الحرمين ومن هنا تاتى مسئوليتهم الدينية والتاريخية نحوه ٠ ثم بعد ان استقر هذا المعنى فى اذهان المسلمين وجههم الله سبحانه وتعالى الى الصلاة نحو الكعبة اول بيت وضع للناس ٠ ولا يتعارض تقديس المسلمين للكعبة مع تقديسهم للمسجد الأقصى فالكل خصوصية باقية الى يوم الدين ٠

وفى مادة ابراهيم فى الموسوعة الاسلامية (ص ٦) يتحدث

المستشرقون عن ابراهيم عليه السلام قائلين : ان القرآن فى السور المكية لم يتحدث عن ابراهيم الا بوصفه رسولا أرسل الى قومه لينذرهم شأنه فى ذلك شأن باقى الرسل كما لا يظهر أبدا بوصفه مؤسس الكعبة ٠ ويزعمون ان ظهور ابراهيم بوصفه حنيفا ومسلما ومؤسس الكعبة لم يرد الا فى السور المدنية ويفسرون ذلك بزعمهم بأن محمدا ﷺ كان فى مكة يستند الى اليهود ، ولكن اليهود سرعان ما انصرفوا عنه بعد ان هاجر الى المدينة فاضطر لايجاد سند آخر فخلق ببراعة الدور الجديد لابراهيم ٠ ويمكنه الآن أن يكون مستقلا عن اليهودية المعاصرة له بالرجوع الى يهودية أو ملة ابراهيم التى كانت تمثل ايضا السلف للاسلام ٠ وعندما برزت مكة فى افكاره عليه الصلاة والسلام أصبح ابراهيم فى الوقت نفسه مؤسس البيت الحرام هناك ٠ وهكذا يريد المستشرقون ان يوحوا بأن بناء ابراهيم واسماعيل للبيت الحرام ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ لم يكن الا مجرد اسطورة اخترعها محمد ﷺ ليقيم صلة بابراهيم تدعمه عوضا عن الدعم اليهودى الذى انفصل عنه فى المدينة ٠

ولكن الأمر ليس امر حركة بارعة من محمد ﷺ كما يزعمون وانما هو وحى الله ٠ ولم يكن عليه الصلاة والسلام فى ذلك كله الا مبلغا عن ربه ٠

ويستمر المستشرقون فى مزاعمهم عند الحديث عن المسجد الحرام فى الموسوعة الاسلامية (ص ١٠٧٥) فيقولون بأن تعبير المسجد الحرام فى العصر السابق على الاسلام لم يكن يقصد به مبنى كما هو الشأن فى العصور المتأخرة ولكنه كان يعنى فقط ـ كما يزعمون ـ مكة فحسب باعتبار كونها مكانا مقدسا ، كما أن عبارة المسجد الأقصى الواردة فى سورة الاسراء لم تكن تعنى أيضا مبنى معينا ٠

ويغيب عن المستشرقين ان المساجد بصفة عامة تأخذ قداستها من كونها بيوتا لله ٠ ولعل هذا ما يؤخذ من قوله تعالى : « فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال

لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »(٩) ٠

ولكن المستشرقين يحاولون ارجاع قداسة المساجد لدى المسلمين الى ما اقتبسوه من تقاليد كنسية مسيحية وفى ذلك تقول الموسوعة ما يلى : « يبين تاريخ المسجد فى العصور المبكرة من الاسلام ارتفاعا فى شأن قداستها زاد منها اقتباس تقاليد الكنيسة وزاد منها بوجه خاص تسرب عبادة القديسين » ٠

واقتباس تقاليد الكنيسة هنا زعم باطل ٠ فالمسجد يستمد قداسته كما سبق ان اشرنا من كونه بيتا لله خصص لعبادته سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ٠

* * *

● المسجد النبوى فى المدينة :

يذكر المستشرقون ايضا فى الموسوعة سالفة الذكر (ص ١٠١٩) ان مسجد الرسول فى المدينة لم يكن له فى البداية طابع مبنى مقدس مستندين فى ذلك الى انه لم يكن فقط مجرد مكان للصلاة بل كان أيضا مركزا للنشاطات الدنيوية ٠ وهذا التصور الاستشراقى ناتج عن الفهم المسيحى للدين بانه يقتصر فقط على أمور العلاقة بين الله والانسان ٠ ولكن المفهوم الاسلامى للدين يختلف عن هذا المفهوم المسيحى ، فالاسلام نظام شامل للحياة دنيا واخرى ٠ ومن هنا فليس هناك تناقض اطلاقا بين ممارسة الأنشطة الدنيوية فى داخل المسجد مادامت فى اطار الدين وبين تقديس المسجد ٠ فهذه الأنشطة الدنيوية لا تنقص من قداسة المسجد شيئا ٠ فالأمر يتعلق بوظيفة المسجد وشمولها وهذا امر يختلف عن وظيفة الكنيسة فى المفهوم المسيحى حيث تقتصر على أمور العبادة المحضة فقط ٠

* * *

---

(٩) سورة النور آية ٣٦

● خاتمـــة :

هذه لمحة سريعة عن بعض تصورات المستشرقين للمقدسـات الاسلامية وبصفة خاصـة للحرمين الشريفين • ونعتبر حديثنا هنـا مجرد اشارات عابرة وقاصرة أيضـا ، ولا تزال فى حاجة الى تفصـيل واستيعاب • وقد كان عامل الوقت بالاضـافة الى الأعباء الكثيرة الأخرى والارتباطات العلمية المختلفة ـ سببا فى هـذا القصـور الذى نرجو أن نتلافاه مستقبلا ان شـاء الله •

واود فى نهاية حـديثى ان اشـــير الى ان هنـاك فى اوروبا وامريكا ما يزيد على مائة معهد او مركز علمى للاستشراق تتوفر جميعها على دراسـة عقائدنا وحضارتنا وتاريخنا وكل ما يتصل بنا ، ولا يوجد فى الوقت نفسـه معهد واحـد او مركز علمى فى اى مكان فى العالم الاسـلامى يقوم على دراســة الكم الهائل من الانتاج العلمى الاستشراقى • وتذكر بعض الاحصائيات أن المستشرقين قـد الفوا نحوا من سـتين الف كتـاب عن الشرق خلال قرن ونصف من أول القرن التاسـع عشر حتى منتصف القرن العشرين •

نسـأل الله أن يوفق من يعنيهم الأمر من أبناء الأمة الاســلامية ـ وكلنـا يعنينا الأمر فى الواقع ـ نسـأله سبحانه ان يوفق من يشـــاء من عباده إلى الاسـهام الجاد فى عمل علمى تكون له صـفة الاستمرارية وتتوفر له شتى الامكانات لمواجهـة شتى التيارات الفكرية التى تحيط بالأمة الاسـلامية من كل جانب وعلى راسـها تيار الحركة الاستشراقية الذى كان له أثره ولا يزال فى صياغة التصورات الغربية فى كل ما يتعلق بالاسـلام والمسلمين •

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيـــل ••

* * *

الفصـــل الثـالـث

دور مؤسسات الدعــوة حيال الغزو الفكرى

- تمهيـــــــــد .
- تحـديد المفاهيم :
- مؤسســات الدعوة .
- الغزو الفكرى .
- مخاطر الغزو الفكرى .
- دور مؤسسات الدعوة .

  أولا : تحصين الجبهة الداخلية .

  ثانيا : المواجهة المباشرة .
- خطوات عملية .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيـــد :

لم اكلف بكتابة هــذا البحث[1] الا فى نهاية الشــهر المــاضى ، وكان على ان اكتبــه خلال أيام قليلة حتى يمكن لسكرتارية المؤتمر أن تطبعه وتدرجــه ضــمن البحوث الاخــرى . ولعلنى كنت أســـتطيع ان استجمع افكارى حـــول هــذا الموضـــوع خلال تلك الفترة الزمنيــة القصــيرة ، ولكن هنــاك امورا علميــة أخرى والتزامات كثيرة لا تـحتمل التأجيل تتصل بعملى فى ادارة الكليــه التى اشرف بعمادتها جعلتنى اتردد فى قبـــول الكتابة فى هذا الموضوع الهام تحت ضغط عامل الوقت .

ولكننى من ناحية اخرى احسست بمسئوليتى نحو هــذا العمل الذى يعــد نوعا من الجهاد فى ســـبيل الله ، ولذلك اختلست بعض الوقت فى زحمـــة اعمالى الأخرى لأكتب هــذه الســطور التى تعــد بمثابة رؤس موضـــوعات والتى ارجو ان يكون فيها بعض الفائدة ، وان تكون اســـهاما متواضــعا فى اعمال هــذا المؤتمر الجليل ، وان كنت أول من يدرك ما فى هــذا البحث من قصــور وتقصــير .

* * *

تحـــديد المفاهيـــم :

يتحتم علينــا فى البداية ان نحدد بعض المفاهيم التى تعد بمثابة المفاتيح لهذا الموضـــوع . فعنوان البحث المطلوب يحمــل بعض المفاهيم مثل « مؤسسات الدعوة » و « الغزو الفكرى » و « الدور » الذى يمكن أن تقوم به هــذه المؤســـسات حيال هذا الغزو . وهذه أمور تحتـــاج الى شيء من التوضيح أو التحديد بمعنى أصح . فخطواتنا فى مجال الدعوة يجب ان تكون محســوبة ، ومفاهيمنا يجب أن تكون محددة ودقيقة . فنحن اليوم فى عصر لا مجال فيــه للارتجال أو التعميمات الغامضة .

* * *

---

(١) قدم هذا البحث الى مؤتمر « دور الجامعات الاسلامية فى تكـــوين الدعاة » الذى عقـــد بجامعـــة الأزهر فى الفتـــرة من ١٨ ـ ٢٢ أبريل ١٩٨٧

مؤسسات الدعوة :

فماذا نعنى عندما نتحدث عن مؤسسات الدعوة ؟

مؤسسات الدعوة مفهوم واسع يشمل وزارات الأوقاف والمساجد التى تتبعها وما تقوم به من دور كبير فى التوعية الدينية ، وتشمل أيضا معاهد التعليم التى تعنى بالتكوين الاسلامى على اختلاف مراحلها . وبخاصة الجامعية منها . ويدخل فيه كذلك ادارات الوعظ والارشاد واللجان العليا للدعوة ، ولجان الشئون الدينية بالمجالس النيابية والمجلس الأعلى العالمى للمساجد والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية ولجان الشئون الدينية بالأحزاب المختلفة وادارات تدريب الدعاة ، ووسائل الاعلام الاسلامية مقروءة أو مسموعة أو مرئية مثل اذاعات القرآن الكريم والصحافة الدينية سواء كانت صحفا يومية أو اسبوعية أو مجلات اسبوعية أو شهرية أو دورية الخ .... ، كما يدخل تحت مفهوم مؤسسات الدعوة أيضا المؤسسات الأهلية والجمعيات الدينية التى تعنى بالتوعية الدينية .

ويمكن تجاوزا أن يدخل تحت هذا المفهوم أيضا الجهود الفردية التطوعية فى مجال الدعوة الى الله . ولكن هذه الجهود الفردية اذا لم تكن مؤهلة للقيام بدورها فى مجال الدعوة فان خطرها أو ضررها سيكون أكثر من نفعها .

ومن أجل ذلك لا يجوز اغفالها لأنها يمكن أن تثير الكثير من النزاعات حول أمور شكلية فى الدين فتضر أكثر مما تنفع وتفرق بدل أن توحد .

وأخطر هذه المؤسسات جميعا هى المؤسسات التى تتولى التربية والتثقيف ابتداء من المراحل التعليمية الأولى حتى المراحل النهائية ، ويضاهيها فى الخطر والأهمية وسائل الاعلام لما لها من تأثير لا يقاوم فى صياغة أفكار الناس وتوجيه عقولهم .

ومؤسسات الدعوة هذه تستطيع أن تؤدى أجل خدمة للاسلام اذا تعاونت فيما بينها وقامت بتنسيق خططها وتوحيد جهودها . أما اذا تشاحنت فيما بينها وتنافرت خططها وتضاربت جهودها فان هذا من

شـأنه ان يعود بالضرر البالغ على الدعوة الاسلامية بصفة عامة ، بل وينعكس اثره سلبيا على الاسـلام ذاته .

* * *

الغزو الفكـرى :

أما مفهوم الغزو الفكرى فانه مفهوم قـد اسـتقر فى الأذهان فى معظم بلاد العالم الثالث على الرغم من عـدم دقة اطلاقه . فالغزو يعنى الارغام والقهر . وهـدا المعنى غير قائم الا فى بعض الصـور التى يطلق عليها مفهوم الغزو الفكرى . أما بقيـة صـور ما يسـمى بالغزو الفكرى فتتم بايدينا نحن وباختيارنا ، وهذا هـو وجـه الخطورة .

وبصفة عامة يمكن القول بأن مفهوم الغرو الفكرى يقصـد به كل التيارات الفكرية الهـدامة الواردة من الغرب الراسـمالى أو الشرق المـاركسى ، سواء تمثلت فى نظريات فلسفية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية أو سياسية اودينيـة أو دراسـات استشراقيـة او غير ذلك من نظريات تتصـل بحقل الدراسـات الانسانية على وجه الخصوص .

وقد تكون بعض هـذه التيارات الفكرية قـد فرضت بالفعل فرضـا من جانب المستعمر على الشـعوب الاسـلامية ابان فترة الاحتـلال لهذه البـلاد مثل فرض النظرية العلمانية بالفصـل بين الدين والدولة فى مجال السـياسة والاقتصـاد وتنظيم المجتمع ، وازدواجيـة التعليم وما الى ذلك من امور اريد لنـا دون ارادتنا ان نسـير فى تيارها . وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قد جلب الى بلاد المسلمين على أيدى مسلمين تثقفوا بالثقافات الغربيـة فى الوقت الذى لم يكونوا فيـه على دراية تامة بامور دينهم العامة او الخاصـة ، وقد يكون بعض هـذه التيارات قد جلب على ايدى مواطنين غير مسـلمين يهمهم بالدرجـة الأولى اضعاف الاسـلام وتفتيت وحـدته ـ وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قـد وجـد لنفسـه مرتعا خصبا وفرصـة مواتية لدى بعض النفوس المقلدة للغرب فى كل شىء من ابناء المسلمين تحت تأثير مركبات النقص وعقـد

التخلف التى تعانى منها . ولعل هذا الفريق هو الذى عناه المرحوم مالك بن نبى - المفكر الاسلامى الجزائرى - حينما تحدث فى بعض مؤلفاته عن اولئك الذين لازالت لديهم القابلية للاستعمار .

ولا يجوز اغفال الدور الذى تقوم به بعض وسائل الأعلام فى العالم الاسلامى فى نقل الكثير من هذه التيارات الفكرية الهدامة سواء كان ذلك عن علم ودراية أو عن جهل وغفلة ، وسواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر . فان ما تنقله وسائل الاعلام هذه مسموعة أو مرئيسة أو مقروءة يعمل عمله فى صياغة افكار الشباب والأطفال على وجه الخصوص ، بل وفى صياغة افكار الكهول ايضا وينعكس اثره سلبيا على سلوكهم وتوجهاتهم .

***

مخاطر الغزو الفكرى :

بعد هذا التوضيح القصير نعود الى جوهر الموضوع وهو الدور المنوط بمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى . ولكن قبل ذلك علينا أن نسأل :

ما أسباب الخوف من الغزو الفكرى الذى لجأ اليه الاستعمار بعد أن استحال عليه الوجود العسكرى فى البلاد التى كان يحتلها ويسيطر عليها ؟

ان القضية هنا تتصل اتصالا مباشرا بالضعف الذى يعانى منه العالم الاسلامى كله أو بمعنى آخر : ان الأسباب الحقيقية لهذا الخوف تكمن فى التخلف الذى يخيم على الشعوب الاسلامية .

وهذا التخلف واقع ملموس حتى وان توارى خلف بعض مظاهر التقدم المادى فى بعض المناطق الاسلامية .

وغنى عن البيان أن الجسم الضعيف يكون اكثر تعرضا لخطر الاصابة بالأمراض الفتاكة من الجسم السليم . فالأمة الاسلامية لو كانت

قوية مرهوبة الجانب ورائدة فى مضمار التقدم والحضارة لما كانت هناك على الاطلاق مشكلة قائمة حول الغزو الفكرى وخطره على الاسلام . فالاسلام فى ذاته قوى فى مبادئه وأصوله وأهدافه وتشريعاته ، ولا يخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أيا كان خطرها وأيا كان مصدرها طالما وجد هذا الدين من أتباعه الفهم الصحيح لأهدافه وغاياته وتشريعاته . ولكن اذا افتقد الاسلام لدى أتباعه ذلك الفهم لضعفهم وانهيار عزائمهم وانحلال عرى وحدتهم فهنا يكون الخطر كل الخطر الذى يهدد كيانهم كله .

فالقضية اذن تدور حول ما يتعرض له المسلمون ـ نظرا لضعفهم ـ من مخاطر الغزو الفكرى الذى يحاول أن يحتويهم ويستولى على عقولهم ويصوغ لهم افكارهم ويخطط لهم فى كل مجالات حياتهم حتى ينسوا دينهم الذى يراد ازاحته تماما من النفوس ، أو على الأقل يراد له أن يكون فقط مجرد مظهر خارجى يتمثل فى بعض المظاهر الدينية الشكلية التى لا تعنى شيئا . فالمستهدف فى النهاية هو الاسلام بوصفه يشكل العقبة الرئيسية أمام القوى الأجنبية التى تحاول السيطرة على المسلمين أو استنزاف خيراتهم .

فما دام القرآن يتلى بين المسلمين وما دام الاسلام حيا فى نفوسهم فمن المستحيل أن يأمن العدو أو يهدأ له بال أو يقر له قرار ، فالاسلام يرفض ولاية الأجنبى على المسلمين وفى الوقت نفسه يغرس العزة فى نفوس المؤمنين . ومن هنا تحاول شتى التيارات الفكرية الوافدة أن تصفى أدمغة المسلمين من المحتوى الحقيقى للاسلام بطريق مباشر أو غير مباشر .

وان نظرة عابرة على بعض هذه التيارات ترينا بوضوح مدى الجهود التى تبذل فى سبيل افراغ الاسلام من مضمونه واختزاله الى مجرد طقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة ، أو محاولة طمسه كلية ومحوه من العقول والقلوب .

فالاستشراق مثلا له اسلوبه فى التشكيك فى الاسلام جملة وتفصيلا .. جملة بالادعاء بأنه دين مأخوذ من الديانات السابقة عليه ولا جديد فيه ،

وتفصيلا بالتشكيك فى القرآن الكريم سواء فى مصدره أو فى نصه ، وفى الحديث النبوى وروايته وفى الشريعة الاسلامية وأصالتها ، وفى الفلسفة الاسلامية وخصوصيتها ، وفى الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى بصفة عامة ، وكذلك تأجيج نار النزاعات والانقسامات بين الفرق الاسلامية واحياء النزعات القديمة مثل الفرعونية والفينقية والفارسية وغيرها من انتماءات قديمة يراد لها أن تغطى على انتماء المسلمين لاسلامهم وتاريخهم وحضارتهم ، كما تعمل هذه التيارات على اضعاف اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم ، وذلك بتشجيع اللهجات العامية المحلية والتعصب لها أو الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، الى آخر تلك الخطط المشبوهة والمفضوحة ٠

ومن ناحية أخرى تعمل التيارات المادية الالحادية من مذاهب وضعية أو ماركسية أو وجودية ـ تعمل على محو الدين تماما من النفوس وجعل الانسان عبدا أسيرا لأنانيته وحاجاته المادية ، فلا مجال هناك لما يسمى بالروح أو الدين ، فذلك أمر يعد فى نظر هؤلاء تخلفا ورجعية ٠

وهكذا تأخذ المفاهيم معانى معكوسة ٠ فالمادى الماركسى ـ الذى اتخذ الهه هواه ـ يصف نفسه بالتقدمية ، أما المتدين المتمسك بدينه الملتزم بآدابه فانه يوصف بالرجعية ٠

وهكذا تدخل علينا كل هذه التيارات الفكرية الغازية من خلال الضعف الذى يعانى منه المسلمون لا من خلال ضعف الاسلام ٠ ولكن اذا ضعف المسلمون وأصبحوا كالجسد الهزيل الذى لا يقوى على مقاومة ميكروبات الأمراض التى تغزو جسمه فان الخطر ينتقل بالضرورة الى الاسلام ذاته ٠

وهنا تبرز بين المسلمين أنفسهم شتى التفسيرات التى تنحرف بالاسلام عن مقاصده وغاياته ، وتتدخل هنا الأهواء والاغراض لتميل بالدين حسبما تشاء ، وتظهر النزاعات والانقسامات بين المسلمين من أجل أمور ثانوية ٠ ويساعد العدو بالطبع على اشعال نار هذه الانقسامات بهدف ضياع وحدة

المســـلمين وتفكيك عرى التماســك بينهم ، وبذلك يصــل الى ما يريد بايدينا نحن ٠

* * *

دور مؤسسات الدعــوة :

ان الدور الذى يجب على مؤسسات الدعوة أن تنهض للقيام به حيال مخاطر الغزو الفكرى ينبغى ان يسير فى خطين متوازيين فى وقت واحد : أولهما يتمثل فى تحصين الجبهة الداخلية ٠ وثانيهما يتمثل فى المواجهة المباشرة للغزو الفكرى ٠

وهــذا اجمال نفصله فيما يلى :

أولا : تحصين الجبهة الداخليــة :

يقتضى تحصين الجبهة الداخلية استنهاض عزائم المسلمين لنفض غبار التخلف عن كواهلهم وحثهم على المشــاركة الايجابية فى صنع التقدم والحضــارة على أرضهم عن طريق العلم والدراســة والفهم ، حتى لا يظلون ــ كما يراد لهم ــ مجرد مستهلكين لمنتجات الغرب ٠ فالأمر المؤسف حقا ان العالم الاســلامى ــ الذى حباه الله برقعة تحمل فى باطنها كل خيرات الدنيا ــ لا يزال يعتمد فى قوته على الدول الأجنبية بنسبة تزيد على ستين فى المــائة ٠ وهذه الدول اذ تورد له قوته تورد له فى الوقت نفسه افكارها وقيمها وتقاليدها وطرائق معيشتها ٠ ومعروف ان من لا يملك قوته لا يملك قراره ٠

ومن أجل ذلك يجب ان تقوم مؤسسات الدعوة بتنشيط الدافع الذاتى لدى المسلمين وابراز القيم الاســلامية المنسية مثل قيم العمل والوقت والحق والخير والجمال وترسيخ هذه القيم فى النفوس ٠

فلن يجدينا فى شىء ان نكتفى بسرد تاريخنا المشرق والتغنى بما كان لنا من امجاد ســابقة ، فنحن لن نكون جديرين بالانتساب الى هؤلاء الأسلاف العظام الا اذا كنا مثلهم رجالا نعمل ونبنى الحضــارة والتقدم ونتسلح بالعلم والمعرفة والا فلا خير فينا ٠

ويحضرنى فى هـذا الصدد ما يروى من ان شكيب أرسلان قد زار جمال الدين الأفغانى ذات مرة عندما كان شبه اسير فى عاصمة الخلافة العثمانية وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطى قديما واكتشفوا امريكا قبل اكتشاف الأوربيين لها فيرد عليه جمال الدين قائلا :

« ان المسلمين اصبحوا كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ، اجابوه : ان آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشـوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليـه من الخمول والضعة •

ان الشرقيين كلما ارادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : افلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم انتم اولاء كما انتم ، فلا يليق بكم ان تتذكروا مفاخر آبائكم الا ان تفعلوا فعلهم »[٢] •

فمن الضرورى أن توجه مؤسسات الدعوة جهودها ـ كل منها بأسلوبه وطريقته الخاصة ـ لايقاظ الهمم لدى كل فئات الشعب وحفز العزائم للعمل على انتشال العالم الاسـلامى من الركود الذى يحيط به ـ وهـذا أمر يتطلب وضع خطـة للتنمية الدينية والأخلاقية على غرار ما تقوم به الدول من وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية وذلك من أجل ترسيخ المفاهيم والقيم الاسـلامية فى النفوس لتنطلق الى العمل بهمة ونشاط • فهذه التنمية الدينية والأخلاقية هى الأساس الحقيقى لكل أنواع التنمية الأخرى اقتصادية كانت أم اجتماعية أم تربوية أم سياسية الخ ••••

والغريب أن الدول الاسلامية تضع باستمرار خططا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية دون أن تبذل اى جهد حقيقى فى سبيل وضع خطة للتنمية الدينية والأخلاقية فى حين أن هـذه هى الركيزة الأساسية لتلك ـ فتربية الضمير وتوعية العقول بقيم الاسـلام وآدابه يدفع العامل الى العمل بجد

---

(٢) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٠٢ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت •

واخلاص مراعيا ضميره وربه ، فيزيد الانتاج وتتنافس العقول فى سبيل الخير للمجتمع الاسلامى ٠

ومن ناحية اخرى فان التربية على أساس القيم والمبادىء الاسلامية ، والتوعية الدينية بأسس الاسلام وغاياته يشكل حصانة قوية ودعامة أساسية تستطيع ان تواجه اية تيارات فكرية اجنبية ـ ومن هنا ، من تقوية الجبهة الداخلية الاسلامية وتوعيتها ، نحصن المسلم من الوقوع بسهولة فى حبائل الغزو الفكرى ٠

ويجب ان يبدا هذا التحصين من مرحلة الطفولة ، وذلك بغرس الانتماء الحقيقى الى الاسلام فى نفوس النشء وابراز صور البطولات الاسلامية أمام عينه وقلبه ، وصقل مواهبه وتنمية مداركه فى اطار من اخلاق الاسلام وآدابه ٠ ولابد ان تتحقق امامه القدوة الحسنة التى تجعله يتعايش مع الاسلام ممثلا فى نماذج حية لا فى مجرد التلقين بكلام نظرى ٠ فان من اخطر الأمور فى مجال التربية ان يجد الطفل فى مربيه أو فى والديه والمحيطين به ذلك الانفصام المقوت بين القول والفعل ٠ فاذا نهى المربى عن خلق لابد ان يكون هو نفسه منتهيا عنه ، والا حق عليه قول القائل :

لا تنه عن خلق وتاتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم
ابدا بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

ومن الضرورى ان يستمر التحصين المطلوب فى جميع مراحل التعليم ٠

ومن هنا تاتى اهمية تدريس الثقافة الاسلامية فى الجامعات الاسلامية حتى لا يترك الطالب فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حياته نهبا لشتى التيارات الفكرية دون ان تكون لديه حصانة كافية من دينه وتراثه وقيمه ، ودون ان يكون لديه الانتماء الراسخ لعقيدته وتاريخه ٠

ثانيا : المواجهة المباشرة :

اما عن الجانب الثانى من المهمة الأساسية لمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى ، والذى سبق ان اشرنا الى انه ينبغى ان يسير فى الوقت

نفسه مع الجانب الأول فانه يتمثل فى المواجهة المباشرة للتيارات الفكرية الغازية ، ونعنى بذلك ضرورة الدراسة الواعية لشتى التيارات الفكرية ، وادراك أسسها وأهدافها ووسائلها حتى يمكن نقضها وتفنيدها وحماية المسلمين من اخطارها . ولنا فى أسلافنا مثل يحتذى ، فقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل لونا من الوان التحدى للاسلام والفكر الاسلامى الأصيل فى عصور الاسلام الزاهرة ـ كانت حافزا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف امامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه . فقد هضم الفكر الاسلامى تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها . فالمواجهة اذن كانت مواجهة فكرية .

وكان التاريخ يعيد نفسه . فالحرب الآن بين الاسلام والتيارات المناوئة له حرب افكار ، والمعركة معركة فكرية . ولهذه المعارك أدواتها التى يجب التسلح بها . فالخسران فى هذه المعركة اشد وطأة واقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة أية معركة حربية أيا كان حجمها[٣] .

ومواجهة هذه التيارات الفكرية مواجهة حاسمة لا تكون الا بدراستها دراسة واعية . « فلا يقف على فساد نوع من العلوم ـ كما يقول الامام الغزالى ـ من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ... واذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا »[٤] .

وقد طبق الامام الغزالى هذه القاعدة على نفسه حين تعرض بالنقض والتفنيد للأفكار الفلسفية اليونانية فى عصره وللأفكار الباطنية وغيرها من تيارات فكرية . وقد فعل الامام ابن تيمية الشىء ذاته حين تعرض بالنقض والتفنيد للتيارات الفكرية الأجنبية فى عصره .

---

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى للدكتور محمود حمدى زقزوق ص ١٢٤ (سلسلة كتاب **الأمة**) .

(٤) المنقذ من الضلال للغزالى تحقيق د / عبد الحليم محمود ص ١٠٣ القاهرة .

واذا كان اسلافنا العظام قد فعلوا ذلك منذ قرون فنحن اليوم فى نهاية القرن العشرين اولى بان نفعل ذلك ٠ فعصرنا لم يعد يحترم غير منطق العلم ومخاطبة العقل والاقناع بالحجة والبرهان ٠

ومن هنا تاتى ضرورة الدراسة الواعية لكل ما يدور فى عالم اليوم من افكار ونظريات ونقدها فى موضوعية ، وعدم اللجوء إلى القاء الكلام على عواهنه والاغراق فى التعميمات التى لا تجدى فتيلا ٠

وهناك نقطة هامة وضرورية قبل التوجه بالنقد الى الآخرين وهى ضرورة ممارسة النقد الذاتى اولا حتى نعرف مواقع اقدامنا ، ونكون على وعى بقصورنا وتقصيرنا فى حق أنفسنا وفى حق ديننا ، وأن نقوم بتشخيص عللنا وأمراضنا الاجتماعية والفكرية والسلوكية تشخيصا حقيقيا حتى يمكننا ان نقوم بعلاجها علاجا سليما ٠

ولا يكفى ان نرفع اصواتنا بين حين واخر بوضع كل ما نعانيه من علل وامراض وتخلف وانحدار على شماعة الاستعمار والصهيونية ، ونكتفى بذلك وكأننا قد قمنا بحل مشاكلنا ، وادينا واجبنا وعرفنا السبب الحقيقى لكل ما نعانيه من تخلف ٠ ان هـذا السـلوك هو التخلف بعينه وهـو العجـز بعينه ٠

والذى يجب ان ندركه جيدا هو أن التيارات الفكرية الغازية تستمد قوتها من ضعفنا ، ووجودها نفسه فى بلادنا وبين ظهرانينا مشروط بعجز العالم الاسـلامى عن معرفة ذاته ٠ ويوم أن يعى العالم الاسـلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى عن كاهله اثقال التخلف الفكرى والحضارى ـ يومهـا لن تجد هـذه التيـارات الفكرية الغـازية مجـالا للظهـور او الانتشـار بيننا ٠

واذا كان علينا ان نضع عن انفسنا اغلال الوصاية الفكرية فان علينا من ناحية اخرى ان نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا ، والتى تسد على الكثيرين منا منافذ الأمل فى الخروج من ازمتنا ٠ فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى ولكننا لم نتحرر من القابلية

للاستعمار . ولهذا فان نظرة الكثيرين منا لكل ما يأتى من الغرب هى نظرة التقدير والاكبار ، حتى وان كان هـذا الذى يرد الينا متمثلا فى أزياء غريبة عن اذواقنا وتقاليدنا ، أو شرائط تحمل الحانا صاخبة واصواتا مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب ، ونعدها فنا نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم ، غافلين عن الأسباب التى افرزت فى الغرب مثل هـذه الظواهر . وهى اسباب غريبة عنا بكل تأكيد[٥] .

ويبدو أن « عقدة الخواجة » والتقدير الفائق لقدرات الأجنبى أمر ضارب بأطنابه فى بعض الجوانب من تاريخنا . فقد حكى الجاحظ فى كتاب البخلاء الحكاية التالية عن طبيب عربى مسلم هو (اسد بن جانى) . يقول الجاحظ « وكان طبيبا فاكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية وانت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى فى هـذا الكساد ؟ قال : أما واحـدة فانى عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن اتطبب ، لا بل قبل أن اخلق ان المسلمين لا يفلحون فى الطب .

واسمى اسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبا ومراسل ويوحنا وبيرا . وكنيتى ابو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون : ابو عيسى ، وأبو زكريا ، وابو ابراهيم ، وعلى رداء قطن ابيض ، وكان ينبغى أن يكون على رداء حرير اسود . ولفظى عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغـة اهل جنديسابور »[٦] .

وكل هـذه وغيرها شواهد تؤكد لنا ضرورة التحـرر من مركبات النقص وعقد التخلف حتى نكون على ثقة بأنفسنا ، والنقد الذاتى من ناحية اخرى كفيل بفتح عيوننا على كل عيوبنا . وهـذه الخطوات تمثل شروطا ضرورية للدخول فى المواجهة العلمية التى على مؤسسات الدعوة

---

(٥) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٦) المرجع السابق ١٢٨ وما بعدها .

أن تضطلع بها ، وبخاصة تلك المؤسسات المعنية بتكوين الدعاة أو التخطيط لتكوينهم • وفيما يلى بعض الأفكار العملية المتواضعة فى مجال المواجهة الفـــكرية •

* * *

خطـــوات عمليـــة :

نظرا لأن المواجهة اليوم ــ كما سبق أن اشرنا ــ هى مواجهة على المستوى الفكرى ونظرا لأن التيارات الفكرية الوافدة تتخذ لنفسها صـفة العلمية والانسانية والتقدمية والحضــارية الخ فلابد لنا من أن ندخل الى هــذا الميدان ونحن مسلحون بنفس الأسلحة الفكرية التى تستخدمها هــذه التيارات او التى تدعى انها تستخدمها حتى يمكن كشف زيفها على علم وعن بينـــة • وهــذا يقتضى اتخاذ بعض الخطــوات العملية ومنها على ســبيل المثال ما يأتى :

١ ــ انشاء مركز علمى للدراسات الاستشراقية :

فليس من المعقول ولا من المقبول ان يكون هناك فى أوربا وأمريكا ما يقرب من مائة معهد للاستشراق تقوم كلها بدراسة عقائدنا وحضارتنا ولغتنا وتاريخنا كله ، ولا يوجد لدينا على امتداد العالم الاســلامى مركز بحوث واحــد لدراسة الكم الهائل الذى انتجته المؤسسة الاستشراقية عن ديننا وحضــارتنا • وحسب بعض الاحصاءات بلغ عــدد المؤلفات التى اصدرها المستشرقون عن الشرق منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين الف كتاب • وفى الكثير منها طعن فى ديننا وتشكيك فى قرآننا وهجوم على نبينا وهدم فى حضارتنا وتراثنا كله • ونحن عن هــذا كله غافلون اللهم الا بعض الجهود الفردية هنا وهناك •

ولا يخفى على احد أن هناك فريقا من المثقفين فى العالم الاســلامى معجبين بالدراسات الاستشراقية ومنهم من يتقلدون مناصب الأستاذية فى الجامعات الاســلامية ، ويقومون ببث افكارهم بين الطلاب فى قاعات الدراســـة •

٢ ـ مركز علمى لدراسة التيارات المعاصرة :

وانشاء هذا المركز يعد ضرورة تحتمها المصلحة الاسلامية للتعمق فى فهم هذه التيارات ودراستها ثم اصدار الدراسات الرصينة الواعية التى تأتى على هذه المذاهب من القواعد بأسلوب علمى مقنع يكشف ما فيها من زيف وبطلان ، الأمر الذى يحملها على الفرار من الساحة الفكرية فى بلاد المسلمين .

٣ ـ موسوعة اسلامية عالمية :

هناك ضرورة ملحة ليس فقط على مستوى العالم الاسلامى ، بل أيضا على المستوى الفكرى العالمى لاخراج موسوعة اسلامية عالمية باللغة العربية وثلاث لغات اوربية على الأقل تعرض الاسلام عرضا علميا وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التى تثار ضد الاسلام ، وتحل هذه الموسوعة محل دائرة المعارف الاسلامية التى اخرجها المستشرقون ولا يزالون يقومون باخراج الطبعة الثانية منها ، أو على الأقل تكون بجوار هذه الدائرة ، والباحثون لدينا يعتمدون على تلك الدائرة الاستشراقية ، وهم معذورون ، فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ، وربما معادية لأفكارنا فلا نلومن حينئذ الا انفسنا .

وهذا العمل المطلوب لاخراج موسوعة اسلامية بأقلام المسلمين يقتضى تكوين هيئة علمية عالمية للموسوعة تضم خيرة العلماء من جميع انحاء العالم الاسلامى تتوفر على اخراج هذا العمل العلمى الضخم من منطلق الانتماء للاسلام وحده والعمل من أجله لا من منطلق انتماءات اقليمية ضيقة . ولابد من ان تتوفر لهذه الهيئة شتى الامكانات المادية لتقوم بعملها على خير وجه .

وعلى مؤسسات الدعوة ان تتبنى الدعوة لجمع التبرعات من جميع انحاء العالم الاسلامى لتمويل هذا العمل الاسلامى وتمويل المركزين البحثيين المشار اليهما قبل ذلك . فهذه الموسوعة وكذلك الدراسات التى تصدر عن هذين المركزين ستمد الدعاة برصيد علمى كبير يعينهم على

القيام بمهمتهم فى مجال الدعوة الاسلامية على أفضل الوجوه ، ويجعلهم قادرين على مواجهة شتى التيارات الفكرية ٠

٤ ـ جهاز عالمى للدعوة الاسلامية فى الخارج :

واذا تحدثنا عن مؤسسات الدعوة ودورها حيال الغزو الفكرى فى بلاد المسلمين فلا يجوز أن ننسى أن دور مؤسسات الدعوة يجب أن يمتد ليشمل الأقليات الاسلامية فى كل مكان ٠ فهذه الأقليات تتعرض أكثر من غيرها لمخاطر الغزو الفكرى والمحو المنظم لعقيدتها وذاتيتها وارتباطها بتراثها ولغتها وتاريخها كله ، وبخاصة تلك الأقليات التى تعيش فى البلاد الشيوعية ٠

وعلى الرغم من وجود الملايين العديدة من المسلمين فى أوربا وأمريكا فان الأجيال الجديدة من ابناء المسلمين هناك والأجيال القادمة يشبون وهم لا يعرفون من لغاتهم الأصلية شيئا ٠ وهؤلاء اذا أرادو التعرف على اسلامهم لا يجدون أمامهم ـ فى اغلب الأحيان ـ الا كتب المستشرقين فى كل مكان فيستقون معلوماتهم من هذه الكتب ومعظمها تشكيك فى الاسلام ٠ ومن ناحية اخرى فان وجود هذه الملايين من ابناء المسلمين فى البلاد التى تصدر لنا التيارات الفكرية المناوئة لفكرنا وديننا يدعونا لأن نهتم بهم اهتماما مضاعفا ٠

وهذا يتطلب انشاء جهاز عالمى للدعوة الاسلامية فى الخارج يقوم بالدعوة الى الاسلام من ناحية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثانية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثالثة ٠ ويقتضى ذلك من بين أمور أخرى اصدار سلسلة كتب اسلامية باللغات العالمية لتصحيح التصورات الخاطئة عن الاسلام فى الأذهان وتقديم الحلول الاسلامية لمشكلات المسلمين العصرية وبخاصة مشكلات المسلمين فى بلاد الحضارة الغربية ٠

كما ينبغى أن يهتم الجهاز المقترح بنشر لغة القرآن بأحدث وسائل التعليم حتى يظل ارتباط المسلم فى هذه البلاد موصولا دائما بقرآنه وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ٠

***

وبعـــــد :

فليس هناك شك فى أن تنفيذ مثل هــذه المقترحات وغيرها من خطوات عملية فى هــذا المضمار سيكون له مردود عظيم على الاســلام والمسلمين فى الداخل والخارج . وسيشد من عزائم الدعاة ويوسع آفاقهم ويجعلهم أكثر قدرة على مواجهة المواقف الفكرية المختلفة فى ثبات وقوة ، ويجعل لهم الغلبة والنصر فى المعارك الفكرية أيا كان حجمها وأيا كانت الجهة التى تقف وراءها .

والأمر الجدير بالذكر فى هــذا المقام هو أن الانسان المعاصر فى عالم اليوم قد بدأ يبحث عن الثوابت فى مجال الدين والعقيدة ، واذا قام المسلمون بهذا العمل العلمى الضخم بشتى اللغات الحية فانهم سيقدمون بذلك أجل خدمة للاســلام فى القرن الخامس عشر الهجرى ، ويقدمون للانسان المعاصر المتعطش للمعرفة والباحث عن الحقيقة النور والهداية . وهناك مؤشرات قوية ـ كما يقول بعض المراقبين المطلعين على التطورات الفكرية فى العالم(٧) ـ توحى بأن القرن الحادى والعشرين يمكن أن يشهد تحول نصف سكان الكرة الأرضية الى الاسلام لمــا فى هــذا الدين من عوامل جذب كثيرة بالنســبة للانسان المعــاصر ، شريطة أن ينهض المسلمون بواجبهم العلمى فى عرض دينهم وعقائدهم بالأسلوب الذى يقنع الانسان المعــاصر .

وليس ما نقوله مجرد أمنيات أو أحلام . فمن منا كان يتصور قبل الحرب العالمية الثانية أن يكون للاسلام حضور قوى ومؤثر فى بلاد غرب وشــمال أوروبا ؟

ولكن المعجزة قد حدثت ، وارتفعت عشرات المــآذن واقيمت مئات المســاجد فى بلاد غرب وشــمال أوروبا ، وأصبح للاســلام وجود بالملايين من أبنائه فى كل أنحاء أوروبا وأمريكا ، الأمر الذى حدا بالبعض إلى

---

(٧) د. رشدى فكار . فى محاضرة له بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقــاهرة فى ١٩٨٧/٣/٢٩

القول بأن الصحوة الاسـلامية أو اشراق شمس الاسـلام مرة أخرى سيكون من أوروبا • فالاسـلام الذى بدأ غريبا فى مكة ينطلق اليوم مرة أخرى من بلاد الغربة فى الطرف الآخر من العالم • وقد نتفق أو نختلف مع هـذا القول ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو تزايد أعداد المسلمين باستمرار فى تلك البـلاد ، الأمر الذى اضطرت معه كثير من هذه البـلاد الى الاعتراف رسـميا بالاسلام والاعتراف بكل ما يترتب على هذا الاعتراف من حقوق للمسلمين هناك •

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٨] •

صـدق الله العظيم •

* * *

---

(٨) سورة يوسف ٢١



ملحـــــق

الدعوة الاســــلامية فى العــــالم المعـــاصر
الأهــداف والوســائل

قمت بكتابة هــذا المشروع فى الأصل بناء على طلب بعض الجهات المعنية بشئون الدعوة ونثبته هنا تعميما للفائدة ٠



الدعـوة الاسـلامية فى العـالم المعـاصر

الأهـداف والوسـائل

لقد اصبحت هناك ضرورة ملحة فى العصر الحاضر لانشاء مؤسسة عالمية للدعوة الاسـلامية فى الداخل والخارج تنحصر مهمتها فى تحقيق هدفين محددين هما :

أولا : تحصين المجتمع الاسـلامى من الداخل بالعقـائد والأفكار الاسـلامية الصحيحة .

ثانيا : حماية الأمة الاسـلامية من أخطار التيارات الفكرية الخارجية .

وغاية الهدف الأول تثبيت ايمان المؤمنين والحفاظ على عقيدتهم صـافية نقيـة من كل الشوائب . وهذا أمر يتطلب توعيـة المسلمين بالعناصر الاسـاسية التى يقوم عليها الاسـلام وهى العقيـدة والشريعة والأخـلاق بمنهج القرآن فى الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسـنة والجـدال بالحسنى واتباعا للنهج النبوى الذى خطه رسـول الله للدعاة فى حديثه الذى رواه البخارى عن انس حيث يقول : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » .

ولتحقيق هذا الهدف لابد من التركيز على ما يأتى :

١ ـ شرح العقيـدة الاسـلامية بأسـلوب بعيد عن التعقيـد وبيان آثارها فى نفوس الأفراد والجماعات وابراز ملاءمتها للعقـل السـليم والفطرة الصـافية وعـدم تصادمها مع الحقائق الثابتة فى مجالات العلوم المختلفـة .

٢ ـ توضيح مفهوم الشريعة بوصـفها منهجا متكاملا للحيـاة بكل جوانبها ودسـتورا شـاملا لتنظيم المجتمع وليست قاصرة على مجرد تشريعات حـدودية .

٣ ـ ترسيخ المعنى العام لمفهوم العبادة فى أذهان المسلمين بوصفه مفهوما شاملا لكل عمل يقوم به المسلم دينيا كان أم دنيويا مادام يقصد به وجه الله وجلب المصالح ودفع المضار ٠

٤ ـ ابراز القيم الأخلاقية الاسلامية وبيان اثارها فى بناء المجتمع وتقدمه والعمل على نشرها بالقدوة الحسنة وليس فقط عن طريق الشرح النظرى لفوائدها ٠

***

الوسائل لتحقيق الهدف الأول :

فيما يلى نذكر عددا من الوسائل التى تعمل متكاملة على الوصول الى تحقيق الهدف الأول ، غير أن بعض هذه الوسائل يدخل ضمن مهام المؤسسة المقترحة وبعضها الآخر يتعلق بالحكومات المعنية فى الدول الاسلامية ٠ ولكن المؤسسة فى هذا الصدد تستطيع أيضا القيام بدور هام بتقديم المشورة والمساعدة فى وضع الخطط والبرامج والتدريب والتنسيق والدعم الأدبى والمادى ٠٠٠ الخ ٠

١ ـ احياء الكتاتيب القديمة بأسلوب عصرى لتحفيظ القرآن الكريم والعناية به ٠

٢ ـ انشاء مدارس اسلامية حديثة متطورة تعنى بالتربية الاسلامية الشاملة وتستطيع مواجهة المدارس الأجنبية فى العالم الاسلامى ويتطلب الأمر أيضا بالاضافة الى ذلك ضرورة العمل على اصلاح مناهج التربية الاسلامية فى التعليم العام ٠

٣ ـ الاهتمام باعداد وتكوين مدرس التربية الاسلامية واستقلاله بتدريس هذه المادة بدلا من اضافتها الى مدرس اللغة العربية ٠

٤ ـ انشاء معهد لاعداد الدعاة من بين الراغبين فى الدعوة ممن لم يحصلوا على مؤهلات معينة تتيح لهم الالتحاق بالكليات الاسلامية ٠ والاهتمام بالتدريب المستمر للدعاة وائمة المساجد الحاليين لضمان أن يكون ما يقدمونه للناس ملائما لحاجاتهم ومراعيا لواقعهم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ـ وضع برامج لاعداد دعاة متخصصين فى الدعوة فى مناطق الأقليات الاسلامية يجيدون لغات تلك المناطق ويزودون بمعلومات كافية حول مشكلات المسلمين فيها •

٦ ـ توظيف الوسائل الحديثة من اذاعة مسموعة ومرئية وصحافة وفيديو وسينما ومسرح وكمبيوتر فى خدمة الدعوة الاسلامية والتوجيه الاسلامى العام والتثقيف الدينى •

٧ ـ اعادة النظر فى البرامج الدينية التى تقدمها وسائل الاعلام وجعلها برامج نوعية يختص كل منها بجانب معين من جوانب التثقيف الدينى المدروس بدلا من التكرار القائم وانعدام التنسيق بين هذه البرامج ، الأمر الذى يفقدها التأثير المطلوب •

٨ ـ تنظيم محاضرات دورية لتوعية المسلمين بالمفاهيم الاسلامية الصحيحة ـ كما كانت تفعل فى السابق جمعيات الشبان المسلمين وغيرها من مؤسسات مماثلة •

٩ ـ اقامة ندوات ومؤتمرات متنوعة لا تقتصر على العواصم الكبرى بل تنتقل من مدينة الى اخرى لاشاعة الوعى الاسلامى •

١٠ ـ اصدار موسوعة فقهية مختصرة تشتمل على كل ما يهم المسلم معرفته فى حياته التعبدية والعملية •

١١ ـ اصدار موسوعة حديثية مختصرة ومبوبة تشتمل ايضا على كل ما يهم المسلم معرفته من أمور دينه •

١٢ ـ انشاء مركز لتحقيق التراث يختلف عن مراكز تحقيق التراث القائمة تكون مهمته وضع الاولويات واختيار المجالات والكتب التى يمكن توظيفها فى خدمة التثقيف الدينى والدنيوى والتى تكشف عن قدرات المسلمين وابتكاراتهم فى شتى المجالات •

١٣ ـ اصدار مجلات اسلامية جذابة للأطفال والشباب تكون ذات مستوى رفيع فى التحرير والطباعة •

١٤ ـ اصدار سلسلة من الكتيبات سهلة التناول لشرح المفاهيم الاسلامية تخاطب فئات متنوعة ابتداء من الأطفال فالشباب فالكهول ومحدودى الثقافة والمثقفين ، كل حسب مستوى ادراكه حتى تعم الفائدة ٠

ومن بين الموضوعات التى يمكن ان تتناولها هذه السلسلة ـ على سبيل المثال ـ ما يأتى :

ـ بيان أثر الايمان فى نفوس الأفراد والجماعات وتوضيح الحكمة من التشريعات الاسلامية ٠

ـ مفهوم العبادة بوصفه ينتظم جميع أعمال الانسان وارتباط ذلك بمسئولية الانسان فى عمارة الأرض وصنع الحضارة ٠

ـ توظيف السيرة النبوية فى شرح الأخلاق والحكم والتشريعات الاسلامية ٠

ـ التركيز على الأمور التى تجمع بين المسلمين والبعد عما يفرقهم ٠

ـ ابراز الانجازات الحضارية التى قام بها المسلمون فى السابق لكى يستعيد المسلمون اليوم الثقة فى قدراتهم ٠

ـ القاء الضوء على البطولات الاسلامية فى شتى المجالات على مدى التاريخ الاسلامى ٠

***

الهدف الثانى :

أما عن الهدف الثانى وهو : حماية الأمة الاسلامية من أخطار التيارات الفكرية الخارجية فهذا أمر يتطلب معرفة هذه التيارات والاحاطة بها لتبين مدى الأخطار التى تهدد المسلمين من وراء انتشارها بينهم ، وتتمثل هذه التيارات بصفة رئيسية فى الاتجاهات الآتية : الماركسية ـ العلمانية ـ الفلسفات المادية الالحادية ـ الاستشراق ـ التبشير ـ الماسونية ـ الصهيونية العالمية ـ القاديانية ـ البهائية ـ والنوادى الدولية المشبوهة ، وما ينطوى تحت كل من هذه الاتجاهات

من تفريعات ـ الغزو الاعلامى وما يرسخه فى أوساط المسلمين من قيم غريبة وما ينشره من تحلل خلقى عن طريق السيل الهائل من الأفلام والبرامج الأجنبية التى تعرض فى بلاد المسلمين ٠

والوصول الى تحقيق حماية الأمة الاسلامية من اخطار هذه التيارات يتطلب انشاء مركز بحوث يضم أربع شعب على النحو التالى :

(أ) شعبة لدراسة التيارات الفكرية المعاصرة وموجات التغريب التى غزت العالم الاسلامى ولا تزال تغزوه وبيان موقف الاسلام منها ٠

(ب) شعبة للدراسات الاستشراقية لبيان ما تنطوى عليه هذه الدراسات من اباطيل ٠

(جـ) شعبة تختص بدراسة التبشير من جميع جوانبه وبيان مدى الأخطار التى تهدد المسلمين فى ديارهم بسبب الحملات التبشيرية العالمية ووضع الخطط المحكمة لمواجهتها ٠

(د) شعبة للمعلومات تمد الشعب السابقة بكل ما تحتاج اليه من معلومات ودراسات عن أوضاع المسلمين فى كل مكان وما ينتشر فى مجتمعات المسلمين من أفكار ، وأوضاع الأقليات الاسلامية فى العالم واحتياجاتها وتحركات المبشرين واساليبهم فى كل مكان ومؤتمراتهم وخططهم ، ومؤتمرات المستشرقين وخططهم ، وخطط الماركسية والماسونية والصهيونية العالمية والنوادى الدولية المشبوهة وغير ذلك من معلومات ضرورية لخدمة العمل الاسلامى فى الداخل والخارج ٠

ولا بد من الاستعانة بالكمبيوتر للمساعدة فى تحقيق اهداف المركز المقترح بالاضافة الى توفير مكتبة تضم كافة المطبوعات والدوريات والنشرات والأشرطة التى تساعد على الدراسة والبحث ٠

* * *

مهام المركز المقترح :

من بين المهام الأساسية التى تقع على عاتق هذا المركز ما يأتى :

١ ـ اصدار دائرة معارف اسلامية بالعربية وباللغات الأجنبية التى نشر بها المستشرقون موسوعتهم الاسلامية ٠

٢ ـ اصدار ترجمة معتمدة لمعانى القرآن الكريم بعـدد من اللغات الأجنبية لخدمة المسـلمين من غير العرب وخدمة الراغبين فى الاطـلاع على الاسـلام من غير المسلمين .

٣ ـ اصدار ترجمة للموسـوعتين الفقهية والحديثية اللتين سـبقت الاشـارة اليهما الى عـدد من اللغات الأجنبية .

٤ ـ اصدار دراسـات علميـة تكشف للمسـلمين فى جميع أنحاء العالم عن مدى الأخطار والتزييف فى هذه التيارات الفكرية ، وفى الوقت نفسـه بيان ما ينطوى عليه الاسـلام من الحق الذى لا مراء فيـه والذى يضمن للبشرية كلها السـلام والاستقرار والأمن والأمان فى هذا العالم .

٥ ـ ترجمة كتيبات مناسبة مما سبق ذكره فى الهدف الأول الى عدد من اللغات الأجنبية لتسـاعد المسـلمين من غير العرب على فهم الاسـلام واصـدار كتيبات خاصـة للتعريف بالاسـلام تشرح عقـائده ومبادئه وتاريخه وحضـارته وتكون دليـلا أمام الراغبين فى دراسـة الاسـلام من غير المسـلمين .

٦ ـ برمجة القرآن الكريم والسـنة النبوية الصحيحة والمعلومات الفقهية وغيرها من علوم اسلامية ضرورية للتثقيف الدينى وذلك عن طريق الكمبيوتر ونشر ذلك على نطاق واسـع فى الجامعات والمؤسسـات الاسـلامية والمدارس للاسـهام فى اشـاعة الوعى الدينى الاسـلامى فى أوسـاط المسـلمين .

٧ ـ العمل على نشر اللغة العربية فى بلاد المسلمين والبحث عن أفضـل السـبل لتعليم المسلمين اللغة العربية عن طريق الكتب والأشرطـة والمعامل الصوتية .. الخ حتى تظل صـلة المسلمين فى كل مكان قائمة بلغـة القرآن الكريم .

٨ ـ اعداد برامج مناسبة لرعاية الأقليات الاسلامية فى العالم تراعى ظروف وأحوال المسـلمين فى البيئات المختلفة ، واعداد برامج ايضـا لتثقيف ورعاية المسـلمين الجدد لتقوية ارتباطهم بالاسـلام والمسـلمين حتى لا يتعرضون لانتكاسـات كما حدث بالنسبة للبعض منهم .

* * *

فهرس تفصيلى

الصفحة

مقـــدمة ٥

الباب الأول : دراسات فى ضوء القرآن والسنة
(٧ ـ ٧٦)

الفصل الأول ـ مفهوم وحدة الأمة الاســلامية : ٩
القسم الأول : مقدمات عامة ١١
١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن الكريم ١١
٢ ـ منشا الاختلاف فى الأمة الواحدة ١٤
٣ ـ الوحدة والخصائص المميزة ١٥
٤ ـ الوحدة الكمية والوحدة النوعية ١٧
القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الاسلامية . . . ١٩
١ ـ البعـــد الدينى ١٩
٢ ـ البعـد الانسانى ٢٠
٣ ـ البعد الاجتماعى ٢٢
٤ ـ البعد الجغرافى ٢٤
٥ ـ البعد الحضارى ٢٥
٦ ـ البعد المصيرى ٢٧
المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الاسلامية ٢٨
١ ـ الفرقة والتنــازع ٢٨
٢ ـ موالاة الأعـــداء ٢٩
خاتمة : واقع الأمة الاسلامية وآفاق المستقبل ٣٠
الفصل الثانى ـ القرآن الكريم وخصائص المجتمع الاسـلامى . ٣٣
تحديد المفاهيم ٣٥
وحدة العقيدة والمبادىء ٣٨
الأخـــوة ٤٠
المســاواة ٤١
التكافـــل ٤٢
التعاون والتراحم والمحبة ٤٣

الصفحة

الشورى ٤٣
العزة والمنعــة ٤٤
التسامح والروح الانسانية الشاملة ٤٥
خاتمــــة ٤٧
الفصل الثالث ــ رؤية اسلاميــة للمسئولية العالمية ٤٩
أولا ــ مدخل ــ المسئولية المعاصرة ٥١
ثانيا ــ المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الاسلام . . . ٥٦
١ ــ المسئولية فى نظر الاسلام ٥٦
٢ ــ الانسان خليفة الله فى الأرض ٦١
٣ ــ الصورة القرآنية للعالم ٦٥
(ا) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة . . . ٦٥
(ب) حرية الانسان ومصيره ٦٩
(جـ) الايمان والمسئوليـة ٧٢
(د) دوائر المســئولية ٧٦

الباب الثانى ــ دراسات فى الفكر الاسلامى الفلسفى

(٨٣ ــ ١٥٩)

الفصل الأول ــ دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى . . . ٨٥
أولا ــ موقف الاسلام من العقل ٨٧
١ ــ تمهيد ٨٧
٢ ــ الانسان فى نظر الاســلام ٨٨
٣ ــ العقل ووظيفته ٩٠
٤ ــ تمهيــد الطريق أمام العقل ٩٢
ثانيا ــ دور الاســلام فى تطور الفكر الفلسفى ٩٥
ثانيا ــ دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى ٩٥
١ ــ الجانب الفكرى ٩٥٠
(ا) نظرة عامــة ٩٥
(ب) مبدأ الاجتهــاد ٩٩

الصفحة

(ج) فكرة التوفيق أو الوسطية ١٠١

(د) نظرة الاسلام الى التاريخ ١٠٧

٢ ـ الجانب التاريخى ١١٠

(ا) التاثير الاسلامى فى فلسفة العصور الوسطى . . . ١١٠

(ب) التاتثير الاسلامى فى فلسفة العصر الحديث . . . ١١٦

كلمة ختامية ١١٨

الفصل الثانى ـ حول مفهوم التصوف الاسلامى . . . ١٢١

ـ تمهيـــد ١٢٣

ـ الانســان كائن متميز ١٢٣

ـ التصوف ظاهرة انسانية عامة ١٢٥

ـ التصوف وفكرة التاثير والتاثر ١٢٧

ـ صعوبة البحث فى التصوف ١٢٨

ـ أهم تعريفات التصوف ١٢٩

(ا) الاتجــاه الأخلاقى ١٣٢

(ب) الاتجاه الزهــدى ١٣٣

(ج) الصوفى والعابــد ١٣٤

ـ نشاة التصوف الاسلامى ١٣٦

الفصل الثالث ـ حول مفهوم القيم ١٤٣

١ ـ تمهيـــــد ١٤٥

٢ ـ مفهوم القيمة ١٤٧

٣ ـ مصدر القيم ١٥٢

٤ ـ التقييم والقيم ١٥٢

٥ ـ اصناف القيم ١٥٤

٦ ـ سلم القيم والخير الاقصى ١٥٦

٧ ـ خاتمـــة ١٥٩

الباب الثالث ـ الاسلام وتيارات الفكر الغربى
(١٦١ ـ ٢١٩)

الفصل الأول ـ الاسلام والاستشراق ١٦٣

الصفحة

١ ـ تمهيـــد ١٦٥
٢ ـ تاريخ الاستشراق وتطوره ١٦٦
٣ ـ مواقف المستشرقين ١٧٤
(ا) الجوانب الايجابية ١٧٥
(ب) الجوانب السلبية ١٧٩
٤ ـ موقفنا من الاستشراق ١٨٦

الفصل الثانى ـ الاسشراق والمقدسات الاسلامية ١٩٣
ـ تمهيـــد ١٩٥
ـ المقدسات الاسلامية ١٩٥
ـ الاستشراق وقدسية الحرمين الشريفين ١٩٨
ـ المسجد النبوى فى المدينـة ٢٠٣
ـ خاتمـــة ٢٠٤

الفصل الثالث ـ دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى . ٢٠٥
ـ تمهيـــد ٢٠٧
ـ تحـديد المفـاهيم ٢٠٧
ـ مؤسسات الدعوة ٢٠٨
ـ الغزو الفكرى ٢٠٩
ـ مخاطر الغزو الفكرى ٢١٠
ـ دور مؤسسات الدعوة ٢١٣
اولا ـ تحصين الجبهة الداخلية ٢١٣
ثانيا ـ المواجهة المباشرة ٢١٥
ـ خطوات عمليـــة ٢١٩

ملحق : الدعوة الاسلامية فى العالم المعاصر : الاهداف والوسائل . ٢٢٥

فهرس تفصيلى ٢٣٣

قائمة بالأعمال العلمية للمؤلف ٢٣٧

قائمة بالأعمال العلميـة للمؤلف

أولا ـ كتب :

١ ـ تمهيد للفلسـفة (الطبعة الثالثة) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦

٢ ـ المنهج الفلسـفى بين الغزالى وديكارت ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١ ودار القلم بالكويت ١٩٨٣ (الطبعة الثالثة) ٠

٣ ـ مقـدمة فى علم الأخـلاق (الطبعـة الثالثـة) دار القلم بالكويت ١٩٨٣

٤ ـ دراسـات فى الفلسفة الحديثـة ـ دار الطبـاعة المحمدية بالأزهر ١٩٨٦

٥ ـ مدخل الى الفكر الفلسـفى (مترجم عن الألمـانية) مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

٦ ـ ثلاث رسـائل فى المعرفة للامام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر ١٩٧٩

٧ ـ الاسـلام فى الفكر الغربى (الطبعـة الثالثة) دار القلم بالكويت ١٩٨٦

٨ ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ٠ تتولى نشره رئاسـة المحاكم الشرعية والشـئون الدينية بدولة قطر فى (سلسـلة كتـاب الأمة) الدوحة ـ قطر (الطبعة الثالثة) ومؤسسـة الرسـالة فى بيروت ١٩٨٥

٩ ـ الاسلام فى تصورات الغرب ـ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٧

١٠ ـ قضايا فكرية واجتماعية فى ضوء الاسلام ـ دار المنار بالقاهرة (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م) ٠

ثانيا ـ رسـائل صغيرة :

١ ـ الاسـلام ومشكلات المسلمين فى المـانيا ـ مكتبـة وهبـة بالقاهرة ١٩٨١

٢ ـ دور الاســلام فى تطور الفكر الفلســفى ـ مكتبة وهبــة بالقاهرة ١٩٨٤

٣ ـ الاسلام والاستشراق ـ مكتبة وهبة ١٩٨٤

(نشر هذا البحث أيضا فى كتاب (الاسلام والمستشرقون) الذى اصدرته دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع فى جدة بالمملكة العربية السعودية ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م) ٠

ثالثا ـ دراسات وبحوث منشورة فى مجلات علمية :

١ ـ الشـك المنهجى عنـد الغزالى وديكارت ـ مجلة عالم الفكر بالكويت (العدد الثالث من المجلد الرابع : أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٧٣) من ص ٢٠٥ الى ص ٢٥٠

٢ ـ الفلسـفة ومشكلة الشـك ـ مجلة الحكمة للدراسـات الفلسـفية والاجتماعية جامعة طرابلس ـ ليبيا ٠ اكتوبر ١٩٧٦ (من ص ١٢٣ الى ص ١٤٧) ٠

٣ ـ أعمال المستشرقين ٠ مجلة عالم الكتب ـ دار ثقيف للنشر والتاليف بالرياض بالمملكة العربية السعودية ٠ رجب ١٤٠٤ هـ ابريل ١٩٨٤

٤ ـ الاسـلام فى الفكر الاستشراقى (حولية كلية الشريعة والدراسات الاسـلامية بجامعة قطر) ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م من ص ١٠٣ الى ص ١٦٨

٥ ـ سيرة الرسـول فى تصورات الغربيين ٠ مجلة مركز بحوث السـنة والسـيرة بجامعة قطر ٠ العدد الأول ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ (من ص ٧٣ الى ص ١٢١) والعـدد الثانى (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م) من ص ١٠٩ ـ ١٩٤

(وقد قامت مكتبة ابن تيمية بالمحرق بدولة البحرين بنشر الحلقـة الأولى من هذا البحث فى صورة كتاب عام ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م) ٠

٦ ـ مفهوم المسئولية فى الحضارة الحديثة ـ بحث منشـور فى الكتاب التذكارى الذى أصـدره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهـرة عن الفيلسـوف الراحل يوسف كرم ٠

٧ ـ الاســلام فى تصــور أدباء وفلاســفة الغرب ـ بـحث منشــور فى العدد الرابع من حولية كليــة أصــول الدين بالقاهرة ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ٠

٨ ـ رؤية اسـلامية للمســئولية العالمية ـ بـحث منشــور فى العدد الخامس من حولية كليــة أصول الدين بالقاهرة ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ٠

رابعا ـ مؤلفات وبحوث بلغات أجنبية :

١ ـ فى اللغة الألمــانية :

(1) Al Ghazalis Philosophie im Vergleich mit Descartes. Borg Verlag. Hamburg .

(2) Kultur : Verantwortung .

قدم المؤلف هذا البحث الى مؤتمر (العلاقات الحضارية الدولية) الذى عقـد فى مدينــة بون بالمــانيا الغربيــة فى الفترة من ٢٦ الى ٣٠ مايو ١٩٨٠

(3) Heutige Weltveranwortung in islamischer Sicht.

بـحث مقدم الى الندوة التى أقامها معهد الأديان فى فرايبورج بمدينة سانت ميرجن بالمــانيا الغربية (نوفمبر ١٩٨٦) ٠ وقد قامت دار نشر هردر Herder الألمــانية المعروفة بنشره ضمن كتاب ضم بحوث الندوة المذكورة ٠

٢ ـ فى اللغة الانجليزية :

On the Role of Islam in the Development of philosophical Thought .

بـحث قدم الى ندوة الحضارة الاســلامية فى بروكســـل ـ بلجيكا (نوفمبر ١٩٨٢) ٠ وقامت رئاســة المحاكم الشرعية بدولة قطر بترجمته ، وتتولى نشره رئاســة الندوة المذكورة ٠

٣ ـ فى اللغة الاندونيسية :

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ترجمه الى الاندونيسية تاج الدين عبد الله موسى ـ بانجيل ـ اندونيسيا ـ بتصريح خاص من رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر ٠

خامسا ـ أعمال مشتركة :

محاضرات فى فلسفة التاريخ للفيلسوف هيجل ـ الجزء الثانى : العالم الشرقى (ترجمه الى العربية د ٠ امام عبد الفتاح امام وراجعه على الأصل الألمانى د ٠ محمود حمدى زقزوق) ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٨٦

رقم الايداع بدار الكتب المصرية : ١٩٨٨/٨١٨٥

دار التوفيق النموذجية للطباعة
ت: ٩٢٥٣٠٤
الأزهر ٣ حيضان الموصلي ـ بجوار جامع الرحاب



هــذا الكتــاب

يشتمل هذا الكتاب على عدد من البحوث والدراسات التى تتناول بعض القضايا الفكرية والاجتماعية فى ضوء الإسلام

وقد قدم المؤلف أغلب هذه الدراسات إلى عدد من المؤتمرات والندوات الدولية فى مصر والعالم العربى وأوروبا .

وينصب الهدف الأساسى لهذه البحوث على ابراز بعض القيم والمفاهيم الإسلامية ، وتوضيح دور الإسلام فى التوجيه السليم للتيارات الفلسفية والصوفية والأخلاقية ، والتأكيد على تصحيح بعض التصورات المغلوطة التى تذيعها بعض تيارات الفكر الغربى عن الإسلام ، ومسئولية مؤسسات الدعوة فى هذا المجال .

والمؤلف معروف فى العالم العربى ببحوثه العلمية الجادة وله مؤلفات ودراسات عديدة فى مجالات الفلسفة والأخلاق والاستشراق والدراسات الإسلامية .

وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الأندونيسية والإنجليزية ، وله بالإضافة إلى ذلك بحوث منشورة باللغة الألمانية .

[الناشر]



٩ ش الباب الأخضر ميدان الحسين
ص . ب ٦١ هليوبولس